ميخائيل شولوخوف ترجمة: محفوظ جروج مصير إنسان دار رقمنة للكتاب العربي

رواية

مصير إنسان

مترجم عن الكاتب الروسي ميخائيل شولوخوف

المترجم المرحوم محفوظ جروج:

ولد الكاتب المترجم محفوظ جروج عام **1938** م في مدينة محردة السورية التابعة لمحافظة حماة أم النواعير، وتعلم في مدارسها، وانغمس في المطالعة منذ طفولته، وسجل بقسم اللغة الإنكليزية في جامعة بيروت العربية، ولكن الحرب الطاحنة آنذاك منعته من المتابعة، فاعتمد على نفسه بنفسه حتى أصبح متمكنا من قراءة الكتب باللغة الإنكليزية من مصادرها الأصلية، وبكل سهولة ودقة ووضوح دون حرفية بل حسب السياق الصحيح ، وقد نشر العديد من الدراسات منها دراسة عن سومرست موم في مجلة الدنيا، وقد ودع هذه الدنيا عام **2022** م بعد أن أغنى الحركة الأدبية والثقافية العربية بمقالات ودراسات وترجمات أهمها ترجمته هذه الرواية للكاتب الروسي الكبير ميخائيل شولوخوف.

978-91-89288-80-5

رقمنة
دار رقمنة الكتاب العربي ستوكهولم

ميخائيل شولوخوف

ترجمة: محفوظ جروج

مصير إنسان

رواية

الطبعة الأولى 2023
ISBN: 9789189288805
الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 2023-08-26-18-18
الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم
السويد، فاستراء جوتالند
البريد الإلكتروني:
arabiskabok@hotmail.com
تدقيق لغوي ومتابعة الشاعر: **مفيد فهد نبزو**
تصميم الغلاف: الأستاذة سحر عبدالمقصود

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع الاتحاد العالمي للمثقفين العرب.

© جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى

وفاء لا يموت

عندما شرع الكاتب الأديب الأستاذ محفوظ جروج بترجمة هذه الرواية من اللغة الإنكليزية للكاتب الروسي الكبير ميخائيل شولوخوف كان يضعني بكل لحظة من تفاصيل العمل لأعيش معه فرحته باعتبار عشنا بحكم الجيرة والصداقة الحميمة رغم فارق السن التوءمة الأدبية، والتواصل مع أدباء الوطن والمهجر، وكم كانت فرحته عظيمة عندما انتهى من ترجمتها على الورق، وكان لي الشرف أن أقوم بكتابتها إلكترونيا وتدقيقها لغويا، وسلمني أمرها، وأوكلني بإرسالها للطباعة والنشر، ولأنه رحمه الله كان يتمنى أن يكحل عينيه برؤيتها مطبوعة قبل أن يأزف الرحيل، وينطفئ نجمه من سماء الأدب والثقافة، فها أنا اليوم أهديها لروحه في عالم الأبدية لتكون وفاء لا يموت، وتؤكد أن الكلمة التي كانت في البدء لا يمكن أن تموت، ولا يمكن أن تسلم رايتها في معركة الحياة الأخيرة التي تحيا بالوفاء وتنتصر على العدم، ولها الخلود الأبدي والبقاء السرمدي في وجدان الإنسانية وضمير الزمان الذي تشرق فيه متحدية عوامل الانحلال والفناء، وغياب الجسد بعتمة الديجور وغربة النسيان.

سلاما لروح الأديب الكاتب المترجم محفوظ جروج الذي كان مثالا يحتذى بالمعرفة والأدب ودماثة الأخلاق، والطيبة والتواضع، والمحبة التي تؤمن بالإنسان الحر الذي يرفرف محلقا بجناحي الخير والسلام.

مفيد نبزو

مصير إنسان

رواية مترجمة

الإهداء:

إلى روح الكاتب الأديب محفوظ جروج الذي سلَّم الأمانة قبل أن يكحِّل مقلتيه برؤية هذه الرواية منشورة، بعد السهر المضني في ترجمتها من الإنجليزية للعربية.

كان ذلك في شهر آذار من السنة الأولى على نهاية الحرب، حيث كانت تباشير الربيع الناعمة تندفع بشكل غير مألوف على أعالي نهر الدون، ورياح نهاية الشتاء الدافئة تهب من شواطئ بحر أزوف باتجاه الدون، وفي غضون يومين على بداية هبوبها كانت قد سوت رمال الضفة اليسرى من النهر وفرشتها وذوبت الثلوج التي ملأت مياهها الوديان والأخاديد، ففاضت الجداول

واندفعت بما تحمله بشكل جنوني نحو السهول وغمرتها، مما جعل عبور الطرقات والسير عليها شبه مستحيل.

صادف في هذا الوقت غير الملائم من هذا العام أن أقوم برحلة اضطرارية إلى قرية بوكانوفوسكايا، ولم تكن المسافة بعيدة جداً بل كانت حوالي ستين كيلو متراً فقط لا غير، ولكن اجتيازها لم يكن بالأمر السهل كما تبين لنا في البداية، وشرعت أنا وصديقي في اجتياز مسافة هذه الرحلة قبل شروق الشمس، وكان الحصانان رغم قوتهما وتغذيتهما الجيدة يلهثان تعباً من جر العربة الثقيلة التي غاصت عجلاتها حتى محورها في هذا الخليط الرطب الممتزج بالرمل والثلج والجليد الذائب، ولم تمض ساعة على هذا الإجهاد وهذه المعاناة حتى كللت قطرات العرق بشكل رغوة بيضاء جسم الحصانين، كما ظهرت تحت الأشرطة الضيقة المدلاة من أربطة كفليهما، فانبعثت رائحة العرق غير المستساغة المختلطة بالقار الكثيف الذي طلي به سرجيهما الدافئين، فامتلأ هواء الصباح المنعش بهذه الرائحة المقززة للنفس،

وكان في بعض الأماكن يصعب على الحصانين جر العربة، فكنا ننزل منها، ونسير بجانبها فنسمع صوت قطع الجليد الهشة، وهي تتكسر تحت أقدامنا، كذلك كنا نعاني من صعوبة المشي في وسط الطريق فنلجأ إلى جانبه الذي لا يزال مغطى بقشرة لامعة من الجليد، وكان اجتيازها والسير عليها أكثر صعوبة، ولهذا استغرق اجتياز ثلاثين كيلو متراً ما ينوف على ستة ساعات من المخاضة المطلة على نهر بيلانكا حتى النهر الصغير الواقع بالقرب من قرية موخوفسكي، والذي يبقى جافاً معظم أوقات الصيف، فقد فاض في هذا الوقت، وامتد على مسافة كيلو مترٍ كامل من المروج المستنقعية التي ينبت فيها نبات الحور، وكان لزاماً علينا أن نعبر النهر في مركب صغير مسطح القاع، والذي ليس بإمكانه أن يستوعب أكثر من ثلاثة أشخاص، وتركنا الجياد في مزرعة جماعية حيث كانت تنتظرنا سيارة جيب موديل قديم على الجانب الآخر من النهر هناك طول الشتاء، والوصول إليها عن طريق عبور النهر بالزورق، هذا ما جعلنا نستقل أنا والسائق الزورق الصغير المتأرجح، وقد لعبت في قلوبنا بعض المخاوف، وبقي صديقي برفقة أمتعتنا على الضفة الأخرى من النهر.

ولم نكد نقطع به مسافة قليلة حتى انبثقت من ألواح أخشابه النخرة نافورات صغيرة من الماء، حاولنا أن نسدها بأي شيء كانت تحصل عليه أيدينا، كما كنا

ننزح الماء المتسرب إلى القارب طوال الساعة حتى وصلنا بعد معاناة قاسية إلى الضفة الأخرى من النهر، والتي كانت تبدو لنا بعيدة بعيدة.

ذهب السائق وأحضر سيارة الجيب من القرية، ولما عاد إلى الزورق التقط المجداف وهو يقول:

إذا لم يتحطمْ هذا الزورق ويتفتت قطعاً صغيرة في الماء، فسوف أحضر صديقك وأعود به بعد ساعتين على الأقل.

كانت القرية تقع على مسافة بعيدة نوعاً ما من النهر، وبقرب الماء انتشر نوع من السكون الذي يلف الأماكن المهجورة، وعلى الأخص في أواخر الخريف وبدايات الربيع، حين اختلط بعبق الهواء الرطب ورائحته رائحة مريرة لاذعة تفوح من نبات الحور المتعفن.

وهبت من المساحات البعيدة نسائم خفيفة يغمرها الضباب البنفسجي الباهت، محملة بعبير منعش لا تخطئه الحواس، عبير الأرض التي نزعت عن كاهلها الثلوج منذ وقت قريب، وعلى مسافة غير بعيدة كان يوجد على الرمال القريبة من الماء سياج محطم من أغصان الأشجار، فجلست لأدخن سيجارة، ولما وضعت يدي في جيب الجاكيت الذي كنت أرتديه اكتشفت أن علبة السجائر قد بللتها المياه، وهذا ما أزعجني، فتذكرت أننا ونحن نعبر النهر كيف صدمت جانب القارب

المتأرجح موجة بللتني حتى وسطي بالماء الممتزج بالطين، ولم يكن لدي الوقت الكافي لأفكر في علبة سجائري لأنه كان لزاماً علي أن أترك المجداف، وأبدأ في نضح الماء المتسرب إلى القارب بأسرع ما يمكن لننقذ أنفسنا من الغرق، وبعد أن سحبت العلبة المبللة بكل رفق من جيبي، وأنا ألوم نفسي على إهمالي، جلست على السياج، وبدأت أفرد السجائر المائلة إلى اللون البني، والتي غمرتها المياه واحدة بجانب الأخرى على أغصان السياج.

كان الوقت ظهراً، وكانت شمس أيار تسطع حارة، وكلي أمل أن تجف سريعاً، كما أنني ندمت في مثل هذا الحر على ارتدائي لهذه الرحلة ثيابي العسكرية الثقيلة.

كان هذا هو اليوم الأول الذي اشتد فيه الحر من أيام السنة، وجلست مستسلماً للهدوء والوحدة بشكل كامل، ولذا نزعت قبعتي العسكرية القديمة فاسحاً للنسيم مجالاً أن يجفف شعري بعد هذا المجهود الشاق الذي قمت به في التجديف، ثم أخذت أتأمل وأنا خالي البال في هذه السحب الشديدة الكثافة، وهي تسبح في فضاء باهت بزرقته، فضاء رحب وواسع.

فجأة وقع بصري على رجل قادم من وراء البيوت القائمة في طرف القرية يسير على الطريق باتجاهي، ويقود صبياً صغيراً لا يتجاوز الخامسة من عمره، كانا يسيران والتعب والإرهاق يبدوان على ملامحهما وهما يتجهان نحو المخاضة، وما أن وصلا إلى جانب سيارة الجيب حتى استدارا وأقبلا في اتجاهي بشكل مباشر،

واتجه الرجل نحوي، وكان طويل القامة يبدو عليه بعض الانحناء، ثم قال بصوت عميق فيه بحة:

- مرحبا أيها الرفيق.

- أهلاً وسهلاً بك.

وهززت اليد الكبيرة الخشنة التي مدها إلي مسلماً ثم انحنى نحو الصبي الصغير وقال له:

- قل مرحبا لعَمِّكَ. انظر إنه على ما يبدو سائقاً مثل أبيك. كل ما في الأمر أنك أنت وأنا تعودنا أن نقود الشاحنة الصغيرة أليس كذلك؟!. وكان يذهب ذهاباً وإياباً في تلك العربة الصغيرة، ونظر الصغير إليَّ بعينين صافيتين كالسماء التي لا تشوبها شائبة، وابتسم ابتسامة صغيرة وبكل شجاعة مدَّ إلي يداً قرمزية باردة، هززتها برفق وصافحتها، وسألته:

- لماذا يدك باردة في مثل هذا اليوم الحار؟. هل تشعر بالبرد أيها العجوز؟.

- وبلمسة طفولية كلها ثقة واطمئنان التصق بي، ورفع حاجبيه الصغيرين مندهشاً، وهو يقول:

- أنا لست عجوزاً يا عمي. إنني لا أزال طفلاً صغيراً، وأنا لا أشعر بالبرد. نعم يداي باردتان لأنني كنت أكور بهما كرات من الثلج لألعب بها، وأنزل

الأب الكيس الفارغ إلى نصفه عن ظهره، وجلس بجانبي، وقد بدا عليه التعب والإعياء ثم قال:

- إن هذا الصغير الذي يرافقني في سفري مصدر قلق وتعب دائمين لي، فقد أتعبني وأتعب نفسه، فإذا أوسعت خطواتي في السير أخذ يعدو ورائي حتى يكون بجانبي، وكان علي أن أضبط خطواتي مع خطواته حتى لا يبقى يعدو ورائي، فصرت أخطو ثلاث خطوات بدلاً من أن أقطعها بخطوة واحدة، وهكذا كنا نسير في طريقنا كما يسير الحصان مع السلحفاة، وكان لزاماً علي أن يكون لي عينان في مؤخرة رأسي حتى أعرف ماذا يفعل من ورائي، فإذا ما حانت التفاتة مني إلى الوراء كنت أجده يلعب بيديه في بركة ملوثة غير نظيفة، أو يكسر قطعة من الجليد ويأخذ في مصها كأنها مصاصة على عود.

- كلا ليس من السهل أن يسافر الإنسان مع شخص مثله، وعلى الأخص إذا كان السفر سيراً على الأقدام، وصمت قليلاً ثم بادرني بالسؤال:

- وأنت ماذا تفعل هنا يا رفيقي؟ هل تنتظر رئيسك؟.

- إلى الآن لم أكن أريد أن أقول له: إنني لست سائقاً، فأجبته:

- ألا يظهر عليَّ بأنني أنتظره؟!.

- هل سيأتي قادماً من الضفة الأخرى؟!.

- نعم.

- ترى هل يصل القارب إلى هنا بأسرع وقت؟!.

- يحتاج إلى ساعتين على الأقل.

- هذه فسحة طويلة من الوقت، حسناً دعنا نستمتع بها على مهل، فلست في عجلة من أمري، وقد شاهدتك عندما كنت ماراً من هنا، فقلت في نفسي: هذا واحد منا نحن السائقين يستمتع قليلاً بأشعة الشمس، وسوف أذهب إليه وأدخن معه سيجارة لأن تدخين المرء لوحده لا يجلب المتعة له، فهل من الممتع موت الإنسان وحيداً؟!.

إنني أرى بأنك تعيش عيشة فيها رغيدة، وأنك تدخن السجائر الرطبة.. آه.. لا تجهد نفسك وتتعبها يا صاحبي، فالدخان الرطب كالحصان العليل كلاهما لا نفع فيه، هيا بنا ندخن من دخاني العتيق المصنوع من كسارة الشعير.

مدَّ يده إلى جيب بنطاله الكاكي، وأخرج منه كيساً حريرياً بالياً، وأخذ يحاول أن يفتحه، فوقع بصري على الكلمات المطرزة على زواياه: ((إلى جندي من جنودنا الأعزاء يقدمه أحد تلاميذ مدرسة لبديا نسكايا الثانوية)).، ودخنا الدخان المحلي الذي ينبت في بلادنا، ومر وقت طويل ونحن صامتون لم ينبس أحد منا بأية كلمة، وكنت أريد أن أسأله عما جاء به هو والصبي إلى مثل هذه الطرقات الوعرة، لكنه بادرني هو بالسؤال أولاً:

- هل حضرت الحرب كلها؟.

- تقريباً كلها.

- في الخط الأمامي من الجبهة؟.

- نعم.

وسحب نفساً عميقاً ثم قال: وأنا أيضاً يا صاحبي فقد عانيت هناك كثيراً.

- أكثر مما ينبغي؟.

وأراح يديه السمراويتين الكبيرتين على ركبتيه،كما أمال كتفيه بانحناءة نحو الأمام، ونظرت إليه خلسة من طرف عيني، فشعرت باضطراب قوي وغريب، ألم تشاهد عيوناً كانت مملوءة بذرات الرماد اللامعة، ويملؤها حزن وحنين عميقان يصعب عليك أن تديم النظر إليهما؟. فقد كانت عينا هذا الإنسان الذي جمعتني به المصادفة من هذا النوع من العيون.

وكسر فرعاً صغيراً جافاً من السياج، وأخذ يرسم به لمدة دقيقة شكلاً غريباً ثم تكلم قائلاً:

إنني في بعض الأحيان لا أستطيع أن أنام أثناء الليل، إنني أظل أحملق في الظلام، وأنا أتساءل متفكراً: لماذا فعلتِ بي كل هذا أيتها الحياة؟!. لماذا حطمتني هكذا؟!. لماذا كل هذا العقاب القاسي؟!. أتساءل ولا أجد جواباً لكل تساؤلاتي، لا في الظلام الدامس ولا في ضوء النهار الساطع.

إنني لا أجد جواباً ولن أجد بكل تأكيد.

وفجأة رجع إلى نفسه واستجمع قواه ثم ربت على ولده الصغير بكل حنان وقال: امض يا بني، اذهب والعب بجانب الماء فالصغار لهم عالمهم الخاص إذا كانوا بجانب النهر الكبير، ولكن كن حذراً يا ولدي ألا تبلل قدميك بالماء الموحل.

بينما كنا ندخن سوية بهدوء ألقيت نظرة خاطفة على الأب والابن، ولفت انتباهي شيء غريب فيهما وغير مألوف، حيث أن الصبي كان يرتدي ملابس بسيطة ولكنها أنيقة، فإن معطفه الصغير الذي كان مبطناً بجلد خروف كان منسجماً عليه كل الانسجام، أما حذاؤه الصغير فإنه كان مصنوعاً بطريقة مريحة تتلاءم مع جوربه الصوفي، أما قطبات الخياطة التي رتق بها شقاً قديماً في كمِّ معطفه، كل هذا كان يظهر بأن التي قامت بهذا العمل امرأة ماهرة، وأم ذات ذوق رفيع، أما الأب فكان مظهره شيئاً مختلفاً تماماً، فبطانة جاكيته ممزقة في أكثر من مكان، وخيطت بطريقة لا تنمّ عن دقة، وكذلك الرقعة التي على بنطاله البالي كانت قد رتقت بكتمٍ كبيرة وغير منظمة تدل على أن التي رتقتها يد رجل وليس يد امرأة ماهرة، كما أنه كان يلبس حذاء عسكرياً جديداً نوعاًما، أما جوربه الصوفي الذي كان يرتديه فقد كان مليئاً بالثقوب، وهذا ما جعلني أظن أنه رجل أرمل أو أنه على خلاف مع زوجته.

وراقب الرجل ابنه وهو يركض نازلاً باتجاه الماء، ثم تنحنح وواصل كلامه من جديد، وأنا أصغي إليه بكامل انتباهي حين قال: ولدت في إقليم فورونيز عام

1900 م، وكانت بداية حياتي عادية جداً وأثناء الحرب الأهلية عملت في الجيش الأحمر، في فرقة يطلق عليها اسم كيكفدز، ولما حدثت مجاعة سنة 22 ذهبت إلى نواحي كوبان، وهناك كنت أعمل كالثور عند الكولاك، ولولا عملي هناك لما كنت حياً حتى الآن، وتركت ورائي أفراد أسرتي، وهم أبي وأمي وأختي، وكلهم قضوا نحبهم من الجوع، ولذلك بقيت وحيداً ليس لي أحد في أي مكان من هذا العالم، وبعد عام رجعت من الكوبان، وبعت بيتي الصغير، وذهبت إلى فورونيز، وعملت هناك في بداية الأمر نجاراً، ثم تركت النجارة وذهبت إلى إحدى الورش وتعلمت تصليح الأدوات الميكانيكية حتى أصبحت ميكانيكياً بارعاً، ثم تزوجت بعد ذلك زوجة كانت قد نشأت في ملجأ للأطفال الأيتام، نعم لقد عثرت في الحقيقة على زوجة صالحة هناك، وكانت لطيفة الطبع مرحة، خفيفة الظل، تدخل السرور إلى نفوس كل من يعرفها، كما كانت جميلة حسنة المنظر، ربما كان ما عانته من شقاء في طفولتها له تأثيره الكبير على شخصيتها، والحق يقال: ليس هناك وجه للمقارنة بينها وبيني لأنني كنت عصبياً، بينما هي كانت لطيفة هادئة جذابة.

وكنت كلما حانت مني التفاتة إلى وجهها، وأمعن النظر في هذا الوجه الصبيح أشعر بالفرح الداخلي في قلبي لعثوري على أجمل امرأة في العالم، ولن يوجد جمال مثيل له.

كنت في بعض الأحيان أعود من العمل مرهقاً معكر المزاج من شدة الإنهاك، ولا أطيق أن يكلمني أحد، ولكنها لم تقابل شراستي بمثلها على الإطلاق بل كانت مثال الرقة والهدوء، وتحاول بشتى الطرق أن تواسيني وتخفف مما أعانيه من تعب، فكنت أهدأ وأنظر إليها، وكان مجرد النظر إليها يدخل الهدوء إلى نفسي، والسرور إلى كياني، وعندها لم يكن لي خيار سوى أن أطوقها بذراعي وأقول لها:

سامحيني على قساوتي التي أبديتها تجاهك يا عزيزتي.

إيرينا إنني أمضيت يوماً شاقاً في العمل، وإنني آسف على تصرفي المشين، وبعدئذ يعود السلام والوئام فيما بيننا، وأهدأ. أتعرف ما قيمة هذا التصرف ومدى انعكاسه على عمل المرء؟!.

لقد كنت أستيقظ باكراً وأغادر السرير بسرعة فائقة، وأنطلق إلى عملي في المصنع، فكنت لا أضع يدي على عمل حتى ينتظم كالساعة، ويعود الفضل إليك يا إيرينا. هذا هو ما كنت أعنيه بأن تكون زوجة المرء مجتهدة وفية تقف إلى جانبه في الملمات والصعاب.

كنت في بعض الأوقات أشرب مع زملائي كأساً من الخمر، وعلى الأخص يوم تقاضي الأجر، وكنت بعض الأحيان أعود إلى البيت بعد انتهاء الشرب، والخمرة تلعب في رأسي، ورجلاي لا تقويان على حملي، فتلتف الواحدة منهما على الأخرى فتثيران الرعب لمن يراهما.

كان هذا يحدث عندما كنت شاباً كامل البنية أعتز بقوتي، وكان بإمكاني أن أشرب أكبر كمية من الشراب، وأعود بعدها إلى البيت سيراً على الأقدام، وأنا أظن بأن الشوارع ضيقة عليَّ، وأنت سائق تعرف تمام المعرفة كيف تخفف من سرعة العربة عندما تصل إلى نهاية السفر، وهكذا أنا حين كانت رجلاي لا تقويان على حملي، فينتهي الأمر بي إلى أن أحبو على رجلي ويدي، وأدخل المنزل، وأنا على هذا الشكل، ومع ذلك لم أكن أسمع من عزيزتي إيرينا أية كلمة تأنيب أو سخرية واستهزاء، ولا يعلو صراخها بل تضحك ضحكة خافتة بكل حرص وانتباه، وكانت تفعل هذا كي لا أسيء فهمها وأسيء تأويله، فرغم سكري كانت تجثو أمامي وتنزع حذائي، وهي تهمس لي: الأفضل لك أن تنام بجانب الحائط كي لا تقع عن السرير، وأنت مستغرق في النوم، وكنت ألقي نفسي على السرير مثل كيس من الشوفان، ثم يبدأ كل شيء يسبح أمامي، وحالما يبدأ النوم بمداعبة عيوني أشعر بيدها وهي تمسح بكل رفق على رأسي ثم تهمس بكلمات خافتة، فأعرف أنها ترثي لما أنا فيه، وفي اليوم التالي كانت توقظني قبل موعد الذهاب إلى العمل بساعتين على الأقل حتى يكون لي الوقت الكافي لأعود إلى وعيي، وهي تعرف أنني لا أتناول أي طعام بعد أن أستيقظ وأصحو من سكري، فكانت تحضر لي خيارة مخللة أو أي شيء مماثل لذلك، ثم تسكب لي قدحاً من الفودكا

– **a hairOf the dog** – لتذهب عني ما تبقى لدي من السكر وتقول: ها أنت قد صحيت من السكر يا أندريه، وأرجو يا عزيزي ألا تعود وتكررها ثانية بعد الآن.

والسؤال: كيف يتثنى للمرء أن يبعد شخصاً يضع فيه كل هذه الثقة؟!. فشربت الكأس وأنا أشكرها بلا كلمات، كنت أنظر إليها وأقبلها ثم أذهب إلى عملي كالحمل الوديع.

تصور لو أنها أهانتني بكلمة واحدة وأنا مخمور، أو راحت تحتقرني وتؤنبني، لكنت عدت إلى البيت وأنا سكران مرة ثانية، صدقني أن هذا هو الذي يحدث في بعض المنازل عندما تكون الزوجة حمقاء، وهذا ما رأيته كثيراً، وأنا أعرفه حق المعرفة تماماً.

حسناً ما رزقت إذ رزقت في أول الأمر بولد ثم رزقت بابنتين، وهذا ما جعلني أقطع الصلة بزملائي، حينها كنت أرجع بكل ما أتناوله من أجور إلى البيت، وأسلمه لزوجتي.

لقد أصبحت رب أسرة كبيرة، ولم يعد لدي الوقت الكافي لأتناول المشروب، ولذا كنت أكتفي يوم عطلتي بتناول قدح واحد من البيرة فقط، وأنا مسرور بهذا الاكتفاء.

وعندما بلغت سن التاسعة والعشرين من العمر شغفت كثيراً بالسيارات، فتعلمت قيادة المركبات، وبدأت أمارس عملي في قيادة شاحنة صغيرة، ولما أصبحت بارعاً في هذه المهنة لم أعد أرغب بالعودة بعد ذلك إلى المعمل، فقد وجدت في قيادة السيارات متعة أكثر، وهكذا قطعت عشر سنوات من عمري دون أن أعرف كيف تسرب هذا الوقت مني، لقد انصرمت كالحلم، وما هي عشر السنوات؟. تستطيع أن تسأل أي رجل تجاوز الأربعين من العمر إن كان يعرف كيف انسلخت هذه السنون الكثيرة من حياته، فستجد جوابه بأنه لم يلاحظ منها شيئاً، ولا يعرف كيف تسربت منه.

إن الماضي يشبه الحقول التي يكتنفها الضباب، ولقد قطعت عشرين كيلو متراً في هذا الصباح، وكان كل شيء جلياً واضحاً أمامي ومن حولي، أما الآن وبعد هذه المسافة الطويلة المقطوعة فقدُلفت واكتنفت بالضباب، ولم أعد أميز بوضوح بين الأشجار والأعشاب، ولا بين الأرض المفلوحة والمروج.

واستمريت في العمل طوال هذه السنوات العشر بكل جد ونشاط ليلاً ونهاراً، وكنت أتقاضى أجراً ممتازاً على مجهودي، وهذا ما جعل مستوى معيشة عائلتي لا تقل عن مستوى معيشة غيرنا من الناس، وكان أولادنا مصدر بهجتنا وفرحتنا، وكان أولادي الثلاثة مجتهدين في دراستهم، فكان ابني الكبير أناتولي متفوقاً في الرياضيات، وهذا ما جعل إحدى صحف موسكو تنشر اسمه على صفحاتها،

ولا أدري من أين ورث هذه الموهبة الرائعة،مما أدخل السعادة إلى نفسي، كما أنني فخور به جداً .

وكنا قد استطعنا خلال هذه السنوات العشر أن نوفر قدراً كافياً من المال، وكان ذلك قبل أن تهب نيران الحرب، فشدنا بيتاً صغيراً لنا يتألف من غرفتين وحظيرة وممر صغير، واشترت إيرينا اثنتين من الماعز، وكنا مكتفين بحيث لا ينقصنا أي شيء، فقد كان عندنا الحليب لأولادنا، والسقف الذي يظلنا تحته ونأوي إليه، والملابس التي نستر بها أجسادنا، والأحذية التي تحمي أقدامنا، وهكذا سارت الأمور على أحسن ما يرام، ولكن خطأي الوحيد أنني لم أختر المكان المناسب لأشيد عليه منزلي، فقد شيدته على قطعة أرض قريبة من مصنع للطيارات، وربما لو شيد هذا المنزل في مكان آخر غير هذا المكان لكانت حياتي قد اتخذت منحى آخر.

ثم نشبت الحرب، وفي اليوم الثاني تسلمت أوراق استدعائي إلى الخدمة، ثم بعد يوم آخر طلب مني الحضور إلى محطة القطار، واجتمع أفراد أسرتي الأربعة ليودعوني: إيرينا – أناتولي – وابنتاي ناستنكا واليوشكا، واتخذ الأطفال الموقف وكأنه أمر بسيط، ولكن الفتاتان لم تستطيعا حبس دموعهن، فانهمرت من مآقيهن دمعة أو دمعتان، أما أناتولي فقد كان يرتجف قليلاً، وكأنه يشعر بالبرد، وقد كان في ذلك الوقت يقترب عمره من السابعة عشرة سنة، لكن عزيزتي إيرينا لم أرَ منها

طوال السنوات العشرة الماضية التي قضيناها معاً ما رأيت في تلك الليلة، فقد بللت قميصي وكتفي بدموعها، وتكرر ذلك في صباح اليوم التالي، ولما توجهنا إلى المحطة كنت أرثي لحالها حتى أنني لم أستطع النظر إلى وجهها، فقد كانت شفتاها مبللتين بالدموع، وشعرها كان يحاول أن يظهر من تحت شالها، وعيناها معتمتين وزائغتين. إنها تشبه إنساناً فقد صوابه، وعندما أصدر الضابط أوامره لنا بالصعود إلى القطار ألقت بنفسها على صدري، وطوقت بذراعيها عنقي، وكان كل جسدها يهتز كشجرة تقتلع من الأرض، وحاول الأطفال المتواجدون حولها أن يتحدثوا إليها، كما أنني بدوري حاولت أن أواسيها، ولكن كل ذلك لم يجد نفعاً، كما كانت النساء الأخريات يتكلمن مع أزواجهن والأبناء، أما هي فقد تعلقت بي كما تتعلق الورقة بالغصن، وهي تهتز طوال الوقت حتى أنه لم يبدر منها ولو كلمة واحدة، فقلت لها: تمالكي نفسك يا عزيزتي إيرينا، انطقي بأية كلمة وداع على الأقل قبل أن أغادر، فقالت وهي تنشج بالبكاء بين كلمة وأخرى: يا عزيزي أندريه، إننا لن نشاهد بعضنا مرة أخرى في هذا العالم، وكاد قلبي يتفجر من الألم من شدة الشفقة عليها ومن هذه الكلمات التي أبدتها تجاهي، ولزاماً عليها أن تفهم أن الابتعاد عنها وعن عائلتي ليس بالأمر السهل عليَّ، كما كان عليها أن تفهم بأنني لست ذاهبا إلى حفلة أو احتفال، فلم أتمالك نفسي وأنا أسمع هذه الكلمات حتى سحبت يديها من حول عنقي، ودفعتها بكل رفق كي

أبعدها عني، فقد كنت قوياً كالثور فتراجعت مترنحة نحو ثلاث خطوات، وهذه الدفعة كانت في نظري رقيقة، ولذا أقبلت نحوي ثانية بخطوات صغيرة، وهي تحاول أن تضمني، ولكنني صرخت فيها: هل بهذه الطريقة تحاولين أن تودعيني بها؟ !. أتريدين لي أن أقضي قبل أواني؟!. لكنني لم ألبث أن ضممتها بذراعيَّ مرة أخرى، لأنها كانت في حالة يرثى لها.

وانقطع فجأة عن الكلام وصمت، وسمعت إيرينا صوتاً مختنقاً أثناء هذا الصمت يخرج من حلقه، وشعرت بمدى الانفعال الذي يجيش في داخله، فالتفتت إليه، ولم تشاهد في عينيه المغبرتين الباهتتين أية دمعة، وكان وهو جالس قد سقط رأسه نحو الأمام، ثم أرخى يديه الكبيرتين إلى جانبيه، وهما يرتجفان بشكل خفيف، كما أن ذقنه بدأت ترتعش كذلك، وكذلك شفتاه المطبقتان، فقلت له بكل هدوء: لا تجعل اليأس يستولي عليك يا صديقي، تماسك ولا ترهق نفسك بكثرة التفكير، وعلى ما يبدو أنه لم يكن لكلماتي صدى كبيرعليه، ثم لم يلبث أن تماسك وتجاوز انفعاله بمجهود كبير، ثم تكلم فجأة بصوت أجش متغير النبرات.

حتى آخر لحظة في حياتي، حتى إلى يوم مماتي لن أغفر لنفسي كيف دفعتها بعيداً عني بمثل هذا الشكل.

ولاذ بالصمت مدة طويلة أخرى، ثم حاول أن يلف سيجارة، ولكن ورقة الجريدة تمزقت بين أصابعه، وتناثر منها الدخان على ركبتيه، واستطاع أخيراً أن يلف سيجارة غير متقنة من الورق والدخان، وأشعلها وسحب منها بضعة أنفاس متكررة، ثم تنحنح بعد أن نظف حلقه، وتابع حديثه قائلاً: لقد انتزعت نفسي بعيداً عن إيرينا، ثم تناولت وجهها بين يدي وقبلتها، حيث كانت شفتاها باردتين كالجليد، وسلمت على الأولاد مودعاً ثم أسرعت إلى عربة القطار الذي بدأ يتحرك، وتعلقت بسلمها.

كان القطار يسير حينئذ ببطء شديد، ومر بي مرة ثانية أمام عائلتي، فشاهدت صغاري الأيتام المساكين ملتصقين بعضهم ببعض، كانوا يلوحون بأيديهم، وهم يحاولون الابتسام، ولكنهم لا يقدرون، أما إيرينا فقد ألصقت يداها بصدرها، وكانت شفتاها بيضاء كأصابع الطبشور، وهي تهمس بشيء ما، وتحملق باتجاهي، وقد انحنى معظم جسمها إلى الأمام، وكأنها تحاول أن تقاوم ريحاً هوجاء.

هذه الصورة التي انطبعت في خيالي ستظل راسخة في ذاكرتي مادمت حياً، يداها المضمومتان إلى صدرها، وشفتاها المبيضتان، وعيناها المفتوحتان على اتساعهما، وقد امتلأتا بالدموع. هذه الصورة المطبوعة في ذهني والتي لا أزال أراها في كل

أحلامي، وأتساءل دائماً لماذا دفعتها بهذه الطريقة المشينة؟!، وإنني حتى الآن كلما تواردت على ذهني هذه الصورة أشعر وكأن سكيناً حادة تخترق صميم قلبي.

وساقونا إلى وحداتنا في بيلايا تسيركوف في أوكرانيا وكلفوني بقيادة عربة تحمل ثلاثة أطنان، وأمرت أن أذهب بها إلى الجبهة، وليس هناك من داع أن أحدثك عن الحرب، لا شك أنك شاهدتها بنفسك، وأنت تعرف حق المعرفة كيف تسير الأمور في البداية.

لقد تلقيت رسائل كثيرة جداً من عائلتي، ولكني لم أجاوب عليها كلها، وإن كنت من وقت لآخر أجاوب على إحداها، وأكتب فيها: الأمور كلها بخير، وكل شيء على ما يرام، ونحن نساهم بما نكلف به في القتال، وفي بعض الأوقات أكتب نحن متراجعون في الوقت الحاضر، ولكن لم يمر وقت طويل حتى نجمع قواتنا، ونلقن الألمان درساً لن ينسوه أبداً، وليس بإمكاننا أن نكتب سوى على هذه الشاكلة، وكانت تمر علينا أوقات صعبة جداً نشعر خلالها بأنه ليس لنا رغبة في الكتابة، ولم أكن من هؤلاء الذين يرغبون في استدرار عطف الآخرين، ولم أكن أيضاً من هؤلاء الذين لا يكفون عن الكتابة إلى زوجاتهم وصديقاتهم وأولادهم لسبب أو لغير سبب سوى أن يحكُّوا أنوفهم على الورق بكلامهم الفارغ.

آه ما أقساها من حياة ! آه إن حياتي في خطر ومن الممكن أن أقتل بين لحظة وأخرى، وهكذا كان يواصل كلامه ابن العاهرة، وكان بعضهم يستدر العطف،

وبعضهم يتباكى، وهم لا يدرون أن زوجاتهم الفقيرات، وأطفالهم التعساء الذين خلفوهم وراءهم يعانون في بيوتهم

مثلما نعاني، ولمَ لا فقد كانوا يحملون عبء البلاد على أكتافهم، وأية أكتاف لنسائنا وأطفالنا كي تتحمل مثل هذا العبء الثقيل، وأتمنى ألا تنوء تحت هذا العبء.

إنهم بلا شك تحملوا هذا العبء ورغم ثقله أصروا على تحمله والنهوض به، ثم يأتي واحد ويكتب رسالة حزينة تستدر الشفقة، فلا يكون لمثل هذه الرسائل سوى أن يكون لها مفعول زلزال يقوض أقدام امرأة عاملة، فمثل هذه المرأة المسكينة التي استلمت مثل هذه الرسالة، ماذا تستطيع أن تفعل بنفسها؟، وكيف يتثنى لها أن تقوم بأعباء عملها وتواجهها، إن هذا ما خلق الرجال له، فقد وجدوا ليكونوا جنوداً من أجله، فالرجل وجد لينهض بكل هذا العبء وبعبء كل شيء، ولكن من يتشبه بالنساء أكثر من الرجال فالأحرى أن يلبس فستاناً مزركشاً يُكبِّر به مؤخرته على الأقل، ليظهر كأنه امرأة، ثم ليذهب ويقتلع الشمندر، ويحلب الأبقار، فجبهة القتال ليست بحاجة إلى مثل هذا النوع من الرجال، ولأن الموقف في خط القتال ليس بحاجة إلى من يزيده بلاء على بلاء.

لقد جرحت مرتين خلال السنة التي ذهبت فيها للقتال، إحداهما في ذراعي، والأخرى في ساقي، وكلتاهما جراح خفيفة، فقد كان الجرح الأول برصاصة أطلقت من طائرة، والآخر بشظية من قنبلة،

لقد ثقب رصاص الألمان شاحنتي من أعلى ومن الجوانب، وكنت محظوظاً في البداية نعم يا صاحبي محظوظاً طوال ذلك الوقت حتى لحقني سوء الطالع، فقد أخذت أسير إلى لوزوفنسكي في أيارعام اثنين وأربعين ثم لم يلبث أن أصبح الموقف حرجاً، فقد كان هجوم الألمان عنيفاً قاسياً، وأوشكت ذخيرة إحدى بطارياتنا الهوتزر عيار 120 مم على النفاد، وملأنا شاحنتي اللوري حتى آخرها بالمتفجرات، كما قمت مع الآخرين بهذا العمل الشاق حتى التصق قميصي بظهري، وقد كان لزاماً علينا أن ننجز العمل بأسرع ما يمكن، ولأن الألمان كانوا يتقدمون باتجاهنا، فقد كنا نسمع من شمالنا هدير الدبابات، ومن يميننا وأمامنا صوت إطلاق الرصاص، وغدا الموقف حرجاً، والأمور لا تسير على ما يرام، وسألني قائد مجموعتنا:

- هل تستطيع أن تشق طريقك وتعبر يا سوكولوف؟.

- إنه لا يحتاج أن يوجه لي مثل هذا السؤال، فهل كنت ألعب وزملائي يقتلون؟، وقلت له:

- ما هذا الذي تقوله؟. لقد عقدت عزمي أن أشق طريقي، وليجرِ ما يجري، فقال:

- شق طريقك، وعليك ألا تتهاون.

صعدت على العربة، وقدتها بسرعة فائقة، ولم أتذكر في حياتي أنني قدت عربة بهذه السرعة من قبل، وكان لزاماً علي أن أعرف بأن ما أحمله ليس شحنة من البطاطا، ويجب أن أكون شديد الحذر من المواد الموجودة في العربة.

ماذا يمكنني أن أفعل والفتية يقاتلون هناك بذخيرة قليلة بينما الطريق كله واقع تحت نيران المدفعية، وبعد أن قطعت ستة كيلو مترات، واقتربت من المكان المحدد لم يكن لي سوى أن أنحرف عن الطريق الرئيس، وأتجه نحو الوادي الذي ترابض فيه البطارية.

هل تعرف ماذا شاهدت حينذاك؟. لم تصدقني. لقد شاهدت ما أدهشني، جنود مشاتنا تجري متراجعة عبر الحقول الواقعة على جانبي الطريق والقنابل تنهال عليهم من كل حدب وصوب.

ماذا بإمكاني أن أفعل، ولم يعد بإمكاني أن أعود من حيث أتيت؟.

لقد أعطيتهم كل ما كانوا يستطيعون أن يحملوه من الذخيرة، ولم يعد أمامي سوى كيلو متر واحد فقط، وأصل إلى حيث توجد البطارية، فقد انحرفت عن الطريق، وكنت أظن بأنني أسلك الطريق الصحيح المتجه إليها، ولكنني لم أصل إليها أبداً يا رفيقي.

لم أعرف ماذا حدث، ربما مدفع بعيد المدى قصفني بقنبلة ثقيلة، فسقطت قرب العربة، إنني بالحقيقة لم أسمع صوت هذا الانفجار ولا أي شيء آخر، ولكن هناك شيء ما انفجر داخل رأسي، ولم أعد أتذكر شيئاً بعد ذلك.

كيف بقيت على قيد الحياة؟، وكم بقيت هنالك مستلقياً بجانب الخندق؟، ليس لدي أية فكرة.

فتحت عيني لكني لم أستطع النهوض، رأسي يتأرجح وأنا أرتجف، وكأنني مصاب بالحمى.

كل شيء كان يبدو مظلماً، شيء ما كان يتشظى وينسحق في كتفي الأيسر، وكل جسمي كان يوجعني، وكأن أحداً ما ضربني لمدة يومين متتالين، ثم غادر راكضاً بأي شيء استطاع أن يضع يده عليه، ثم انقلبت على بطني لمدة طويلة، ولكن في النهاية قررت أن أنهض، ولكني لم أستطع أن أقوى على النهوض من مكاني، ولا أعرف ماذا جرى لي، وصفاء ذاكرتي قد ذهب، وقد ساورني الخوف أن أبقى مستلقياً، وكم خفت ألا أقوى على النهوض ثانية، ثم وقفت أخيراً، وأنا أتمايل من طرف إلى آخر كما تتمايل شجرة الحور في العاصفة.

وعندما رجعت إلى نفسي ونظرت حولي شعرت بأن قلبي قد قبض عليه أحدهم بكماشة وعصره، والقنابل التي كنت أحملها متناثرة حولي، وليس بعيداً عني كانت شاحنتي منقلبة، وعجلاتها في الهواء، والقتال نعم القتال كان

مستمراً ورائي بلا هوادة، وعندما لاحظت ذلك، ولست خجلاً أن أقول: إن رجليَّ تقوستا تحتي ولم تعودا تحملانني، وعلى الأخص عندما عرفت بأنني خلف خطوط الأعداء. لا شك بأنني سأكون أسيراً للفاشية، تلك هي الحرب.

ليس من السهل عليك أن تفهم يا رفيقي كيف أنك تؤخذ أسيراً لخطأ لم تفعله، ولذا أخذت وقتاً وأنا مختبئ، وبقيت راقداً هناك، ولم ألبث أن سمعت هدير الدبابات ثم شاهدت أربع دبابات ألمانية متوسطة الحجم تعبر بجانبي بأقصى ما تستطيع متجهة إلى المكان الذي أتيت منه.

هل تفكر كيف كان وقع ذلك علي؟!. ثم أقبلت الجرارات تجر المدافع، كما أن أحدها كان يجر مطبخاً متنقلاً، ثم أقبل الجنود المشاة، ولم يكن عددهم كبيراً بحيث لا يتجاوز سرية واحدة، فنظرت إليهم بطرف عيني مرتاباً، ثم ضغطت وجهي على الأرض مرة ثانية، وقد شعرت بالدوار من النظر إليهم، بدوار لا أقدر أن أعبر عنه بالكلمات، وحالما أدركت بأنهم قد مروا جميعاً رفعت رأسي، وإذا بستة جنود من سلاح المدفعية يسيرون على مسافة مئة خطوة مني تقريباً خرجوا عن الطريق الذي يسيرون عليه، وأنا أنظر إليهم، ولما أقبلوا باتجاهي دون أن ينبس أحدهم بكلمة، قلت لنفسي: لقد وقعت في موقف حرج، واستويت جالساً، فلم أكن أريد أن أموت وأنا مستلق، ثم نهضت ووقفت، فوقف أحد الجنود على بضع خطوات مني، ونزع بندقيته من كتفه، ولكن ما أغرب الإنسان !. هل تعلم بأنني

لم أشعر في تلك اللحظة بأي خوف ولا حتى بأية اهتزازة في قلبي، فقط نظرت إليه وأنا أتعجب وأفكر قائلاً: إنها طلقة واحدة لا تأخذ كثيراً من الوقت، ترى أين سيطلقها؟. هل على رأسي، أم عبر صدري؟.، وليكن ما يكون، ولا أريد أن أعرف أي جزء من جسمي سيمزقه الرصاص.

كان شاباً شعره أسود، ويتمتع بجسم قوي أما شفتاه فكانتا رفيعتين كالخيط، أما عيناه يشع منهما بريق لا تطمئن إليه النفس، فقلت في نفسي: إن مثل هذا الشاب لا يحجم عن إطلاق الرصاص علي ليرديني قتيلاً، وكان ظني في مكانه، فقد رفع بندقيته، وصوبها باتجاهي، وتطلعت إلى عينيه بشكل مباشر، ولم أنطق بأية كلمة لكن شاباً آخر أكبر منه سناً وجسماً وأعلى منه رتبة، تكلم بصوت عالٍ بضع كلمات بلغته ثم أبعد زميله جانباً واتجه صوبي، وتكلم بلغته بضع كلمات أخرى ثم قبض على ذراعي الأيمن ولواه، ثم أخذ يتحسس

، عضلتي وهو يقول: أوه.. أوه..، وأشار إلى نهاية الطريق حيث كانت الشمس تميل إلى المغيب، وقال بحدة: اذهب إلى هناك أيها البغل، ولتعمل من أجل منفعة بلادنا، لقد كان اقتصادياً ابن المومس.

أما الشاب الذي شعره أسود، فقد ركز عينيه على حذائي الذي ألبسه، والذي كان يبدو في حالة مقبولة، وأشار بيده لي كي أخلع الحذاء من رجلي، فجلست

على الأرض ونزعت الحذاء وناولته إياه، بشيء من الاحتقار، فخطفه بسرعة البرق من يدي، فصرخ محتداً

، وبدا عليه الانفعال الشديد، فرفع بندقيته باتجاهي مرة أخرى، وانفجر الآخرون بالضحك، ثم ساروا في طريقهم، ولكن ذا الشعر الأسود بقي يتفحصني بنظره ثلاث مرات قبل أن يلحق بزملائه، فقد كانت عيناه تومضان بالغضب كجرو الذئب، وكأنني أنا الذي أخذت حذاءه، وليس هو الذي أخذ حذائي.

حسناً يا رفيقي لم يكن أمامي شيء أختاره، فسرت في الطريق، وأنا أتمتم بكل ما خطر على بالي من لعنات فورونيز، وأخذت إلى الغرب أسيراً، وأنا منهوك القوى لا أستطيع أن أقطع أكثر من كيلو متر واحد في الساعة، فكنت أسير وكأنني سكران أحاول أن أركز كل قواي بأن أسير في خط مستقيم، ولكني كنت أشعر بأن شيئاً ما يدفعني من جانب إلى جانب آخر من الطريق، ولم أقطع سوى مسافة قليلة حتى شاهدت مجموعة من الأسرى من نفس الفرقة التي كنت من ضمنها، فقد ألقي القبض عليهم أيضاً، ويقوم على حراستهم عشرة من جنود المدفعية الألمان، وأقبل باتجاهي الحارس الذي كان في مقدمة الرتل، وبدون أن يتفوه بكلمة واحدة دفعني على رأسي بأخمص بندقيتي، ولو حدث وتهاويت على الأرض في ذلك الوقت لكان ألصقني بالأرض برصاصة واحدة، ولكن رفاقي أمسكوا بي، وحالوا بيني وبين السقوط، ثم دفعوني بسرعة إلى وسط الرتل، وكانوا في بعض

الأحيان يسندونني لكي لا أتهاوى، وعندما تماسكت وعدت إلى وعيي همس في أذني أحدهم قائلاً: أستحلفك بالله لا تدع نفسك تسقط، تحامل على نفسك واستجمع ما تبقى لك من قوة حتى لا تسقط، فإن سقطت فسوف يقتلونك، وواصلت السير على الرغم أنني منهوك القوى.

ولما مالت الشمس للغروب شدد الألمان علينا الحراسة ثم استقدموا عشرين جندياً آخر من جنود المدفعية بإحدى الشاحنات، ثم ساقونا ونحن مسرعو الخطا، ولم يستطع بعض من أصيبوا بجراح بالغة أن يسايروا الركب، فأطلقوا عليهم الرصاص في الطريق، وحاول اثنان منا الهرب ولم يدركا أنه في ليلة مقمرة كهذه، وفي هذا الخلاء يمكن أن يرى المرء ولو على مسافة ميل، فأطلق عليهما الرصاص أيضاً، وعند منتصف الليل وصلنا إلى قرية نصف محترقة ومحطمة، وجمعونا داخل كنيسة قبتها محطمة، وأمضينا ليلتنا على البلاط الحجري، ولم يكن يغطي هذه الأرض حتى ولا عود واحد من القش، ولم يكن أي واحد منا يلبس معطفه الثقيل، ولهذا لم يكن لدينا أي شيء لنفترشه، فقد كنا جميعنا نرتدي قمصاننا العسكرية، حتى أن بعضنا لم يكونوا يرتدون قمصانهم العسكرية بل كانوا يلبسون قمصانهم الداخلية القطنية فقط، وكان معظمهم من الضباط، وقد خلعوا القمصان العسكرية،ولهذا لم نعد نميز بين الضابط والجندي لأن جنود

المدفعية كانوا قد أسروا وهم نصف عراة، أي كما كانوا في حالتهم التي يعملون بها على مدافعهم.

تلك الليلة بدأ المطر يهطل، وأصبنا بالبلل، فكل ما نلبسه تبلل حتى وصل الماء إلى أجسامنا، ذلك لأن جزءً من السقف كان قد هدمته قنبلة ثقيلة، كما أن الجزء الآخر كان قد شققت الشظايا ما تبقى منه، وليس هناك من بقعة لم يصبها البلل حتى مذبح الكنيسة نفسه، وبقينا مجتمعين طوال الليل في الكنيسة، وكأننا أغنام في زريبة مظلمة، وفي منتصف الليل شعرت بأحدهم يلمس ذراعي ويسألني:

- هل أنت مصاب بجروح يا رفيقي؟.
- لماذا تسأل يا رفيقي؟.
- إنني طبيب وبإمكاني أن أقدم لك المساعدة بطريقة أو بأخرى.

فأخبرته أن كتفي الأيسر مصاب، وأنني أشعر بوجع لا يطاق، وإنني أسمعه كيف يصدر صوتاً أثناء حركتي، فقال بحزم: انزع قميصك الداخلي فنزعته، ثم بدأ يتحسس كتفي بأصابعه النحيلة، وشعرت بالألم الشديد حتى أنني بدأت أصرُّ صريراً على أسناني، ثم قلت له:أنت طبيب بيطري ولست طبيباً بشرياً، لماذا؟. لأنك تضغط في المكان الموجع، فأنت قاسي القلب، لكنه بقي يتفحص بأصابعه، ثم قال لي شبه غاضب: من الأفضل لك أن تبقى هادئاً، ولا أريد أن تتحدث معي بهذا الشكل، عليك أن تتماسك فسوف يوجعك الآن، ثم لوى

ذراعي بقوة، وعلى أثرها شاهدت نجوم الظهر، وغبت عن الوعي برهة، ولما استعدت وعيي قلت له: ماذا فعلت بي أيها الفاشي، ذراعي مكسورة، وأنت شددتها بمثل هذه القسوة؟!. ثم سمعته يضحك بصوت خافت وهو يقول: كنت أفكر بأنك قد أصبت بذراعك اليمنى، ولكن الظاهر أنك شاب جيد المزاج، ويدك لم تكن مكسورة، ولكنها خرجت من حفرتها، وقد أرجعتها إلى مكانها الصحيح، ولذا ستتوجع قليلاً ثم تستريح بعد ذلك، وبالفعل فقد شعرت أن الألم يزول رويداً رويداً، فشكرته عندما عرفت ذلك، ثم سألني بهدوء، ونحن قابعون في الظلمة: هل يوجد هاهنا أي شخص جريح،؟.، قل لهم أنني طبيب نظامي لمساعدة أي شخص بحاجة للمعالجة في ظلمة هذا المكان، ثم أخذ يمارس عمله العظيم.

كانت ليلة قاسية جداً، ولم يكونوا يسمحون لأي منا أن يخرج حتى ولو لقضاء حاجته، وهذا ما عناه كبير الحراس، وهو يدخلنا إلى داخل الكنيسة اثنين اثنين، ولكن لسوء الحظ أن أحد المؤمنين المسيحيين ممن بيننا أراد أن يقضي حاجة وامتنع ، فتماسك ثم حاولت بإلحاحي الشديد ومعاناتي الكبيرة إقناعه لكنه انفجر بالبكاء وهو يقول: إنني مؤمن ولا أستطيع أن أدنس هذا المكان المقدس.

إنني مسيحي حقيقي، بربكم ماذا علي أن أفعل أيها الشباب؟. ضحك بعضهم، ورثى آخرون لحاله، وشرع آخرون يقدمون له أنواعاً من النصائح التي تثير

غيظه، وهذا ما أدخل بعض السرور إلى نفوسنا، ولكن الموضوع هذا انتهى نهاية مأساوية، فقد بدأ يقرع على الباب ويدفعه، وهو يطلب أن يسمحوا له بالخروج، وكان الجواب الذي تلقاه على سؤاله أن أحد الجنود الفاشيين استل بندقيته، وأطلق الرصاص فاخترقت رصاصة الباب، وقتلت المسيحي، وثلاثة آخرين، كما جرح آخر بجروح بالغة أدت إلى وفاته في صباح اليوم التالي.

جذبنا موتانا إلى إحدى الزوايا، وجلسنا بكل هدوء، وكل منا تساوره نفسه أن هذه ليست بداية سارة، وبدأنا نتهامس مع بعضنا بعضاً، ويسأل كل منا الآخر عن المكان الذي أسر فيه، وكيف وقع في الأسر، ثم بدأ فتيان كل سرية أو فصيلة يتحدثون مع بعضهم بصوت منخفض في الظلام الذي يلف المكان، وبالقرب مني سمعت اثنين يتكلمان مع بعضهما، وقال أحدهما: غداً يجمعوننا ويصفوننا قبل أن يرحلونا إلى بعيد، وينادون للقادة السياسيين والشيوعيين واليهود، وعندها لست بحاجة أن تخفي نفسك يا قائد السرية، لن تنجح محاولاتك، هل تظن أنهم سيظنون بأنك جندي من الجنود لأنك لا ترتدي سترتك العسكرية؟. لا تحاول، فإن نجحت، فسوف أكون أول من يدل عليك، فلا أريد أن أموت بسببك. إنني أعرف تمام المعرفة بأنك شيوعي، كما أنني لن أنسى كيف حاولت أن تنسبني إلى الحزب، والآن جاء دورك لكي تقدم حساباً على ذلك.

كان ذلك حديث الشخص الذي يجلس قريباً مني وعلى يساري، ولكن أجابه من الطرف الآخر صوت ضعيف أنا على الدوام كنت أشك فيك، وها أنت ظهرت بأنك شخص متعفن يا كريزنيف، وخصوصاً عندما امتنعت من الانضمام إلى الحزب معللاً أنك لا تعرف القراءة والكتابة، ولكن لم أكن أفكر أنك تحولت إلى خائن هكذا، فأنت قد ذهبت إلى المدرسة حتى سن الرابعة عشر من عمرك، أليس كذلك؟. فأجابه الآخر بمضض وقال: نعم لقد ذهبت، فماذا يعنيك هذا؟.

وساد صمت بينهما لمدة طويلة، ثم سمعت قائد السرية الذي دلني عليه صوته، وهو يقول بكل هدوء: لا تشي بي وتسلمني يا رفيق كريزنيف، وضحك الآخر في هدوء ثم قال:

لقد تركت رفاقك وراءك على الطرف الآخر من الجبهة، أنا لست رفيقاً لك فلا تتوسل إلي، لأنني سأدلهم عليك إن اقتضى الأمر، لأن مصلحتي فوق كل شيء، وتوقفا عن الكلام بعد ذلك، وهنا صار بدني يقشعر ويرتجف لدى سماعي كلام هذا الشخص الحقير، وقلت في نفسي: كلا لن أتركك تخون قائدك يابن المومس، لن أدعك تخرج من هذه الكنيسة ماشياً على قدميك، سأجعلهم يجرونك إلى الخارج من ساقيك، وبدأ نور الصباح ينساب إلى داخل الكنيسة، فأصبح بإمكاني أن أرى من خلاله ما لم أكن أستطيع رؤيته، فظهر لي رجل مستلقٍ على ظهره، وقد

وضع يديه على رأسه، وبدا وجهه كبيراً مكتنزاً، كان يتطلع إلى فوق، وبجانبه شاب نحيل الجسم أفطس الأنف، لا يلبس قميصه بل ثيابه الداخلية، وقد جلس واضعاً ذراعيه حول ركبتيه، وقد اعتراه شحوب شديد، فقلت لنفسي: إن هذا الشاب النحيل لن يكون بإمكانه أن يصفّي حسابه مع مثل هذا البغل السمين، وسوف أنهيه أنا بنفسي، وحين لمست ذراع الشاب، وسألته هامساً: هل أنت قائد السرية؟!. فلم يقل شيئاً، بل أومأ برأسه علامة الإيجاب، وأشرت إلى الفتى السمين المستلقي على ظهره، وسألته: هل ذاك الرجل المستلقي هناك هو من يريد أن يشي بك؟. وأومأ برأسه مرة ثانية بالإيجاب، فقلت له: حسناً امسكه برجليه حتى لا يرفس، أسرع، وقفزت فوق هذا الحقير، وأحكمت أصابعي حول عنقه فلم يجد لديه وقتاً للصراخ، وبقيت عليه وهو تحتي بضع دقائق ثم أرخيت يدي قليلاً، وهكذا تم القضاء على خائن، وكان لسانه بارزاً خارج فمه.

وشعرت بعدئذ بالاشمئزاز والقرف، وأحسست بأنه علي أن أغسل يدي وأنظفهما من شيء مخيف، ولم أكن أشعر بـأنني قد قتلت إنساناً بل أفعى من الأفاعي المخيفة، وهذه هي المرة الأولى في حياتي التي أقتل أحداً فيها، ولم يكن الرجل هذا الذي قتلته من رجالنا، كلا إنه لا يمت إلينا بأية صلة بل كان أكثر شراً من أعدائنا، فقد كان خائناً، ولذا نهضت وقلت لقائد السرية: دعنا نذهب

من هذا المكان يا رفيق، فالكنيسة واسعة، وفي صباح اليوم التالي حدث ما تحدث به كريزنيف إذ أوقفونا صفاً خارج الكنيسة، وأحاطت بنا مجموعة من جنود المدفعية، وقام ثلاثة من ضباط البوليس النازي بإخراج من يظنون أنه يشكل خطراً عليهم من هذا الصف ، ويسألوننا: من منا من الشيوعيين؟. ومن منا من الضباط؟. ومن منا من القادة السياسيين؟.، فلم يجدوا واحداً من هؤلاء فيما بيننا، لأنهم لم يجدوا شخصاً بيننا تصل به الحقارة والدناءة لأن يشي بأحد منا، فقد كان نصفنا على الأقل من الشيوعيين، كما كان بيننا عدد لا يستهان به من الضباط ومن القادة السياسيين، ولكنهم لم يأخذوا سوى أربعة فقط من بين عدد كبير يتجاوز أكثر من مئتين من الرجال، وكان أحد هؤلاء الأربعة يهودياً، أما الثلاثة الآخرون فقد كانوا من الروس، وكلهم من الجنود، ولكن محنتهم أنهم سمر البشرة، وأصحاب شعر أجعد، وكان رجال البوليس يأتون إلى الشخص ويسألونه: هل أنت يهودي؟.،

ولا ينتظرون جواباً يعرف فيه عن نفسه ويقول بأنه روسي، بل يباشرون بعد السؤال مباشرة: اخرج من الصف، وينتهي الكلام، وقد أطلقوا الرصاص على الفقراء المساكين، وساقونا إلى مكان بعيد.

وفي الطريق ونحن سائرون كان قائد الفصيلة الذي شاركني في القضاء على ذلك الخائن خنقاً يمشي عن يميني حتى وصلنا إلى بوزنان، وكنا ونحن نسير في طريقنا

يقترب مني بين حين وآخر ثم يمسك بيدي ويضغط عليها برفق، أما في بوزنان فقد تم الفراق وافترقنا، ولكن كما ترى يا رفيقي إنني منذ اليوم الأول الذي وقعت فيه بالأسر كانت فكرة الهرب تعتمل في داخلي، وكنت أتحين الفرص كي أنفذها، ولكني كنت أتروى وأفكر بهدوء في الطريقة التي يمكن أن أهرب فيها حتى لا أخفق في مسعاي، وعلى طول الطريق ونحن سائرون إلى بوزنان لم أجد الفرصة المناسبة، وفي بوزنان وضعونا في معسكر خاص، وهناك لمعت بارقة أمل لما أسعى إليه، وفي نهاية شهر أيار أرسلونا إلى غابة صغيرة قريبة من المعسكر حتى نحفر قبوراً لمن ماتوا من الأسرى، فقد مات الكثير من شبابنا في ذلك الوقت بسبب مرض الدوسنتاريا الذي انتشر فيما بينهم، وأثناء الحفر في تربة بوزنان القاسية كنت لا أكف عن إلقاء النظرات على ما حولي، فلاحظت أن اثنين من القائمين على حراستنا كانا جالسين يتناولان الطعام، بينما الحارس الثالث راح يغفو تحت أشعة الشمس الحارقة، فوضعت المجرفة بكل رفق على الأرض، وتسللت بكل هدوء إلى خلف شجيرة ثم أطلقت لرجلي العنان بأقصى سرعة متجهاً نحو مشرق الشمس دون أن يلاحظ أحد من الحراس لحظة هروبي، ولم أكن أعرف من أين أتيت بمثل هذه القوة رغم هزالي لأقطع حوالي أربعين كيلو متراً في يوم واحد، ولكن محاولتي هذه باءت بالإخفاق فقد ألقي القبض علي ثانية في اليوم الرابع على مسافة بعيدة جداً من ذلك المعسكر اللعين، وذلك لأن عدداً

من الكلاب راحت تلاحقني ثم ألقي القبض علي في حقل من حقول الشعير الذي لم يتم حصاده بعد، وعند الفجر وجدت نفسي في العراء، وفي حقل مكشوف لا يقل مسافة عن ثلاثة كيلو مترات من الغابة، وكنت أخاف أن أمشي في وضح النهار، أو أعبر إلى الأدغال لذلك اختبأت في حقل الشعير منتظراً انقضاء النهار، وأخذت أفرك بعض حبوب الشعير بيدي، وأملأ جيوبي بما تيسر منها، وفجأة سمعت أصوات الكلاب تنبح، وهدير دراجة نارية تقترب مني، فأخذت دقات قلبي تضطرب، وخصوصاً عندما أحسست أن الكلاب تقترب مني أكثر فأكثر، فاستلقيت وغطيت رأسي بيديَّ، كي لا تنهش الكلاب وجهي، ووصلت الكلاب أخيراً، ولم تستغرق أكثر من دقيقة حتى مزقت كل ملابسي، وتركتني عارياً كاليوم الذي ولدت فيه، وأخذت تجرني وسط حقل الشعير، وتفعل بي كل ما يحلو لها، وفي نهاية الأمر أنشب الكلب الكبير مخالبه في صدري، وبدأ في مداعبة حلقي دون أن يعضه، ثم أقبل اثنان من الألمان على دراجتهم النارية، وأول عمل قاما به أخذا يضرباننني بعنف، ثم أطلقا الكلاب علي، وبدأ اللحم يتطاير كتلاً صغيرة من جسمي، ثم قاداني إلى المعسكر، وأنا على هذه الحالة بلا ثياب، ومضرجاً بالدماء، ثم ألقوني في سجن انفرادي لمدة شهر عقوبة لي على هروبي، ولكن حياتي لم تنتزع مني فما زلت على قيد الحياة، متمسكاً بها بشكل أو بآخر.

إنه لمن الكآبة أن أتذكر تلك الأهوال المرعبة التي مررت بها، وأنا في الأسر يارفيقي، وعندما أسترجع ما بذاكرتي من أنواع العذاب الوحشي الذي مورس عليَّ وعلى جميع زملائي واحتملناه ونحن في ألمانيا، وعندما أتذكر جميع زملائي الذين ذاقوا مرارة العذاب حتى الموت في تلك المعسكرات يقفز قلبي إلى حلقي فأشعر بالاختناق، ولا أعود أقوى على التنفس، فقد كانوا يسوقوننا كقطعان الغنم من معسكر لآخر، و قطعت ألمانيا خلال سنتين ونصف من الأسر مشياً على الأقدام، متحملاً جميع صنوف العذاب، وعملت في مصنع للسليكات في ساكسونيا، وعملت في مناجم الفحم في منطقة الرور، وتصبب العرق من جسمي بغزارة وأنا أحفر بالفأس في أرض بافاريا، كما أمضيت فترة من الزمن في تورينجن، والشيطان وحده الذي يعرف ما هي الأرض التي لم تطأها قدماي في ألمانيا، وكانت المناظر تختلف في كل هذه المناطق، ولكن الشيء الوحيد الذي لم يتغير وظل ثابتاً هو الطريقة التي كانوا يعاملوننا فيها ويضربون بها شبابنا، ولم يتوانوا في إطلاق الرصاص عليهم، وكان أولئك الزواحف يضربوننا ويسوموننا أقسى أنواع العذاب، فيلكموننا ويرفسوننا بأرجلهم، ويجلدوننا بالكرابيج، وبكل قطع الحديد التي تصل إلى أيديهم، ولن أستفيض بالحديث عن هراواتهم ومؤخرات بنادقهم، فالإنسان يضرب هنا كما يضرب الحيوان، وكانوا لا يكفون

عن إهانتنا، ويمارسون شتى أنواع الضرب فقط لأننا من الروس، ولأننا لا نزال نعيش في هذا العالم.

كنا نعمل لديهم ومع هذا كانوا يضربون أي واحد منا لمجرد نظرة باتجاه أحدهم ولو عن طريق الخطأ، أو لمجرد خطوة يقوم بها لا تناسب الطريقة التي يريدونها، وأحياناً كانوا يضربون أحدنا لمجرد الضرب، فيغص بدمه وتغادره روحه ويموت مقطوع الأنفاس، وكأنه لم يعد هناك من الأفران ما يكفي في أرض ألمانيا حتى نحشر فيها جميعاً.

وكان الطعام نفسه في أي مكان نتوجه إليه، حيث يقدمون لنا مئة وخمسين غراماً من الخبز المخلوط نصفه من نشارة الخشب، وقطعة صغيرة من اللفت الذي يقدم للخنازير، وفي بعض الأماكن الأخرى كانوا يقدمون لنا ماء ساخناً لنشربه حين نعطش، وفي بعضها أحياناً لم يقدموا لنا ماء على الإطلاق، ولكن لمَ كثرة الكلام؟، فأنت بإمكانك أن تحكم بنفسك على هذا، إذ قبل أن تندلع الحرب كان وزني ستة وثمانين كيلو غراماً، وما أن أقبل الخريف حتى تناقص وزني على ما يزيد خمسين كيلوغراماً، وغدوت جلداً على عظم، ولم يعد لي من القوة حتى ما أقدر أن أحمل فيه هذه العظام، ومع ذلك كان لزاماً علينا أن نعمل، فالعمل الذي يعمله كل واحد منا ينوء تحته حصان جر العربات، ولكن كأن أفواهنا خيطت بخيوط شديدة فأطبقتها بإحكام بحيث لا ننبس ببنت شفة، ولا بكلمة واحدة.

وفي بداية شهر أيلول أرسلوا مئة وأربعين منا نحن أسرى الحرب السوفييت من معسكر قريب من كوشترين إلى المعسكر رقم ب 14 الذي لا يبعد كثيراً عن دريسدن، وفي ذلك الوقت كان هناك ما يقارب ألفين في ذلك المعسكر، وكان جميعنا يعمل في مقالع الصخر نقلع ونكسر الصخر الألماني بأيدينا، وكانت حصة كل واحد منا في العمل أربعة أمتار مكعبة كل يوم.

تأمل كيف يمكن للواحد منا أن يحافظ على روحه داخل جسده، وعند ذلك شعرنا بالأسر بمعناه الحقيقي، وبعد شهرين من العمل لم يبق من الفريق الذي كنت أعمل معه، والذي كان عدده مئة واثنين وأربعين رجلاً لم يبق منهم على قيد الحياة سوى سبعة وخمسين رجلاً، فتصور ذلك يا رفيقي أنه لم نكن نجد الوقت الكافي لكي نواري زملاءنا التراب فيه، وفي هذه الأثناء انتشرت شائعة داخل المعسكر أن القوات الألمانية قد استولت على ستالينغراد، وأنهم في طريقهم إلى سيبريا، وهكذا كانت تتعاقب علينا المصائب، وكنا لا نقدر أن نرفع رؤوسنا عن الأرض من كثرة العمل الذي كتم أنفاسنا، فتبخرت آمالنا في النجاة، ولم يبق لنا سوى الرضوخ بأن ندفن في تلك الأرض الألمانية، أما حراس المعسكر فكانوا كل يوم يشربون الكحول، ويغنون بأصواتهم العالية أغاني بلادهم كي يجلبوا لأنفسهم كل ما يستطيعون من وسائل الاستمتاع.

وفي إحدى الأمسيات عدنا من العمل إلى كوخنا، وكان المطر لا ينقطع عن الهطول طوال النهار، وكانت أسمالنا التي نرتديها غارقة بماء المطر، وكنا نرتجف من الريح الباردة، ولم نقدر أن نوقف أسناننا من الاصطكاك، ولم يكن لدينا أي شيء نستضيء به ولا أي شيء نجفف أسمالنا فيه، وكنا جائعين حتى حافة الموت الزؤام، ولم يقدموا لنا أي طعام في فترة المساء.

نعم نزعت أسمالي عني، وألقيتها على السرير حيث أنام ثم قلت لرفاقي:

إنهم يطلبون من كل واحد منكم أن يعمل أربعة أمتار مكعبة في اليوم، ولا يحتاج الواحد منا لأكثر من متر واحد حتى يدفن فيه، هذا كان كل ما قلته، ولكن هل تصدق أنه كان بين رفاقنا كلب قذر حقير ذهب وأبلغ ما تلفظت به من كلمات مريرة إلى قائد المعسكر، وكان قائد المعسكر أو اللا جور فورر كما يسمونه ألمانياً اسمه موليير، وكان ممتلئ الجسم، ليس طويلاً جداً، وكان شعره شائباً، وكأنه حزمة من أعواد الكتان التي دهنت بمزيل الألوان ووضعت فوق رأسه، وكانت عيناه باهتتين بارزتين، حتى أهدابه كانت باهتة كشعر رأسه، وكان يتكلم الروسية بكل طلاقة، كما أتكلمها أنا وأنت، وكانت لهجته أثناء الكلام كلهجة أبناء الفولغا، وكأنه ولد ونشأ في تلك النواحي، وكان له وسائل في فنون الإرهاب كثيرة لا أعرف من أين اكتسبها هذا النغل الوضيع.

كان يجمعنا أمام المبنى في صف واحد، فقد كانوا يطلقون على الكوخ الذي نقيم فيه مبنى.

كان يتمشى أمام الصف واقفاً ويده اليمنى خلف ظهره، وقد أحاطت به مجموعة من رجال البوليس النازي، وكان يلبس قفازاً من الجلد، وتحت القفاز شريط من الرصاص يحمي به أصابعه، وعندما يسير أمام الصف كان لا يتوانى عن تسديد لكماته إلى أنوفنا حتى يدميها، كما أنه كان يسير ويلكم أنف أحدنا ويترك الآخر، وأطلق على هذه العملية تطعيم خد الأنفلونزا.

لم يكن البناء الذي في المعسكر كله إلا أربعة مبان فقط، وكان يعطى المبنى الأول ما ينوبه من الطعام، وفي اليوم الثاني يعطى ما ينوب المبنى الثاني، وهكذا دواليك، وكان هذا النغل لا يتخلف يوماً عن الحضور، ولا يقدم إجازة يتغيب فيها عنا، ولكن بقي شيء واحد فقط لم يفهمه ذلك الغبي، وهو أنه حين يبدأ جولته ويقف أمامنا، ويمهد الجولة بسيل من اللعنات والسباب البذيء، لم يكن يعلم أن هذا التصرف المشين كان يزيل عن نفوسنا ما علق فيها من كدر، وكانت كلماته الروسية التي ينطق بها كأنها كلمات أفواهنا نحن، فنشعر بها كأنها نسمات عليلة منعشة تأتينا من بعيد، ولو كان هذا الغبي يعلم أن لعناته لنا بلغتنا الروسية تجلب لنا المتعة لما تكلم بها بل اقتصر على التكلم بلغته الأصلية.

كان هناك رد واحد فقط من رجالنا لزميل من موسكو كان يقول: إن هذا الرجل يستفزني، ولكني أغمض عينيَّ على مضض، وأنا أسمع سيل سبابه ولعناته، فأبدأ أتخيل أنني في موسكو بين أهلي وزملائي الذين أشتاق أن أشرب معهمً كأساً من البيرة المحلية، وكان هذا التفكير يجعلني أنتشي وأغيب عما أنا فيه.

نعم بعد يوم واحد فقط من حديثي عن الأمتار المكعبة استدعاني ذلك القائد إلى مكتبه، وفي المساء جاء اثنان من الحرس وبرفقتهم المترجم، وسألوني:

- هل أنت أندريه سوكولوف؟.
- أجبتهم: نعم، فقالوا:
- هيا اتبعنا بسرعة فالهر لاجروفر يعني القائد يريد أن يراك، وأيقنت السبب الذي كان يريدني من أجله، إنه بلا شك يريد القضاء علي، فودعت زملائي الذين عرفوا كلهم بأنني ذاهب إلى حتفي لا محالة، فأخذت نفساً عميقاً ثم تبعت الحراس، وأثناء عبوري ساحة المعسكر تطلعت إلى النجوم وودعتها أيضاً، وقلت في نفسي مستسلماً لقدري: ليكن ما يكون، فقد شربت كوب عذابك حتى الثمالة يا أندريه سوكولوف يا ذا الرقم 331، وعبر نفسي شيء من الحزن تجاه إيرينا والأطفال، ثم بدأت أستجمع قواي وشجاعتي متغلباً على ما أنا فيه، وعلي أن أواجه فوهة المسدس بكل شجاعة

كجندي روسي أصيل حتى لا أظهر للعدو مدى قسوة الأمر علي وأنا أفارق الحياة.

وفي ما تبقى لي من دقائق أخيرة، كانت غرفة القائد نظيفة جداً وجميلة كأحد أنديتنا، وعلى أرضية النافذة كانت بعض الأزهار، وحول المائدة كان جميع ضباط المعسكر جالسين يتناولون شراب الشنابس ويمضغون لحم الخنزير المسمن، وكان على الطاولة أيضاً زجاجة كبيرة مفتوحة بالكامل، وكثير من الخبز مع لحم الخنزير، وسلطة تفاح، وأنواع عديدة من العلب المفتوحة، وألقيت نظرة على كل هذا الطعام الموزع على المائدة، فشعرت بأنني مريض ومصاب بالغثيان وأريد أن أتقيأ، وكنت أراقب الطعام كالذئب الجائع، وكما ترى فقد نسيت ما هو الطعام اللازم للإنسان، أما الآن فإنني أرى أمامي كل هذه الصنوف منه، وقاومت شعوري بالغثيان، ولكن هذا أخذ مني عناء كبيراً حتى تمكنت من أن أحول نظري عنه، وكان يجلس أمامي مباشرة على الطاولة مولر وهو نصف سكران، وكان يعبث بمسدسه، فينقله من يد لأخرى، ثم ثبت عينيه علي كالأفعى، فوقفت باستعداد، وصفقت قدمي الواهنتين ببعضهما، وتقدمت نحوه، وأنا أقول بصوت عال: أسير الحرب أندريه سوكولوف في خدمتك أيها القائد، فقال لي: حسناً أيها الروسي إيفان، إن حفر أربعة أمتار مكعبة في المقلع فوق طاقتك أليس كذلك؟. فقلت: نعم يا سيدي القائد فوق طاقتي، فقال: وهل يكفيك متر مكعب واحد لصنع قبرك، فقلت: نعم يا سيدي القائد يكفي

ويزيد، فنهض وقال: سوف أقدم لك شرفاً عظيماً بأنني سوف أطلق عليك الرصاص بنفسي الآن لهذه الكلمات التي تفوهت بها، هيا اذهب إلى الساحة حتى لا نلوث المكان هنا، فقلت له: كما تحب، ووقف دقيقة يفكر ثم قذف مسدسه على الطاولة، وملأ كأساً من شراب الشنابس، وأخذ قطعة من الخبز، ووضع عليها رقاقة من اللحم ثم قدمها كلها لي، وقال: اشرب نخب موتك أيها الروسي إيفان، وفي نفس الوقت نخب انتصار الجيوش الألمانية الجبارة.

كنت قد مددت يدي لأتناول الكأس والخبز من يده، ولكنني عندما سمعت كلماته الأخيرة شعرت بأن شيئاً مزقني من الداخل، وقلت لنفسي: أنا الجندي الروسي أشرب نخب انتصار الجيوش الألمانية؟!، ماذا تريد أيضاً أيها القائد؟، فهذا لا يمر علي، ولتذهب أنت وشرابك إلى الجحيم.

وضعت كأس الشراب وقطعة الخبز على المائدة وقلت: إنني لا أتعاطى الشراب شكراً لك على كرمك، فابتسم قائلاً: إنك لا تريد أن تشرب نخب انتصارنا، وفي هذه الحالة فلتشرب نخب موتك إذاً، ولم يكن لدي شيء لأخسره، فقلت وأنا أتناول الكأس: إنه كأس موتي وراحتي من هذا العذاب، ورفعت الكأس، وأفرغته في حلقي بجرعتين، ولم أمس الخبز بل مسحت شفاهي بيدي بكل أدب، وقلت: أشكرك جزيل الشكر على حفاوتك، وها أنا بكامل الاستعداد يا سيدي القائد كي تطلق علي النار، ونظر إلي نظرة حادة وقال: كلْ شيئاً قبل أن تموت، فقلت له: إنني

لا أتناول أي طعام بعد الكأس الأولى، فسكب كأساً ثانية وناولني إياها، وشربت الكأس الثانية، ولم أمس الخبز أيضاً، وكنت أفعل كل شيء في سبيل الشجاعة، وكما ترى كنت أقول في نفسي: إن الخمر على كل حال سوف تلعب في رأسي وتخمرني قبل أن أخرج إلى الساحة لألقى مصيري، واشرأبت حواجب القائد الشقراء الباهتة في الهواء، وقال: لماذا لا تأكل الخبز أيها الروسي إيفان؟، كلْ لا تكن خجولاً، ولكني تمسكت بموقفي أكثر وقلت: اعذرني أيها السيد القائد، ولكنني لا آكل بعد الكأس الثانية أيضاً، فنفخ وجناته وزمجر ثم انطلق يضحك بصوت كالزئير، وهو مستغرق في الضحك، وصدرت منه بضع كلمات في اللغة الألمانية قالها على عجل، بلا شك كان يترجم لزملائه القادة كلماتي، فضحك الآخرون أيضاً، ودفعوا بمقاعدهم إلى الوراء، وأداروا أقداحهم ليفسحوا المجال أمامهم كي ينظروا إلي، ولاحظت شيئاً مختلفاً جديداً، فقد غدت نظراتهم ألطف قليلاً.

وسكب القائد لي كأساً ثالثة ويداه ترتعشان من الضحك، وشربتها في هذه المرة ببطء، وقضمت قطعة صغيرة من الخبز، ثم أرجعت ما تبقى إلى المائدة، فقد أردت أن أظهر لهؤلاء الأنغال أنني ولو كنت أكاد أموت من الجوع إلا أنني لا أقبل أن أغص بلقيمات من الخبز يلقونها إلي، كما أردت أن أظهر لهم أنني أنا الروسي بكبريائي وكرامتي وشهامتي، وأنهم لن يستطيعوا أن يمسخوني حيواناً كما يريدون ويشاؤون.

بعد ذلك ظهر على وجه القائد نظرة جادة، وأمسك بالوسامين المعدنيين، وثبتهما جيداً على صدره، وأتى من وراء المائدة، وهو أعزل من السلاح، وقال: انظر يا سوكولوف إنك جندي روسي حقيقي، إنك جندي رائع، وأنا جندي أيضاً، وأكن الاحترام والتقدير لكل جندي شريف ولو كان من الخصم، فلن أطلق عليك الرصاص، إضافة إلى ذلك في مثل هذا اليوم وصلت قواتنا الباسلة إلى الفولغا واستولت على ستالينغراد تماماً، وهذا مصدر سرور عظيم لنا، ولذا أمنحك حياتك بكل طيب خاطر، اذهب إلى مبناك وخذ معك هذا تقديراً لشجاعتك، وأعطاني رغيفاً من الخبز وقطعة من لحم الخنزير المسمن، فضممت ذلك الرغيف إلى صدري بكل ما تبقى لي من قوة، والتقطت قطعة اللحم بيدي اليسرى، وأصابتني الدهشة والعجب لهذا التحول غير المتوقع في هذا الموقف، حتى أنني نسيت أن أقدم له الشكر، واستدرت إلى اليسار وذهبت نحو الباب، وأنا أتوقع بين اللحظة والأخرى أن يطلق النار على كتفيَّ العاريين فلا أعود إلى رفاقي، ولكن لم يحدث أي شيء مما كنت أفكر فيه أو أتوقعه، لقد أخطأني الموت مرة أخرى، ولكنني أحسست بأنفاسه الباردة فقط.

خرجت من غرفة القائد وأنا ثابت الجَنان، وما إن أصبحت في الخارج حتى بدأت أترنح وأتخبط في كل اتجاه، ودخلت إلى الكوخ وأنا أتمايل لا أقوى حتى على الوقوف، وارتميت بلا وعي على أرض الكوخ الإسمنتية، وأيقظني الفتية

في صباح اليوم التالي، وكان الظلام لا يزال يلف المكان، وسألوني: أخبرنا ماذا حدث لك؟، وتذكرت كل ما حدث لي عند القائد، ووسردته لهم، وسألني الرجل الجالس على السرير بجانب الجدار والقريب مني بصوت مرتجف: كيف سنتقاسم الطعام؟. فقلت له: نتقاسمه كلنا بالتساوي، وانتظرنا حتى بزغ الفجر، ولما عم ضوء الصباح المكان، قسمنا الرغيف وشريحة اللحم فيما بيننا، وكنا نقطعها بخيط، فكان نصيب كل منا قطعة من الخبز لا يتجاوز حجمها حجم علبة الكبريت، حتى فتات الخبز لم يضع منها شيئاً،أما شريحة اللحم فإن ما حصل للواحد منا لم يكن يكفي أن يدهن بها شفتيه، ولكننا تقاسمنا كل شيء بالتساوي.

بعد ذلك كلفوا ثلاثمئة من رفاقنا الأشداء الأقوياء بتجفيف أحد المستنقعات، أما نحن فقد أرسلونا إلى الرور كي نعمل في المناجم، ومكثت هناك حتى سنة الرابعة والأربعين، وفي تلك الأثناء كانت القوات الروسية قد استولت على بعض الأجزاء من ألمانيا، وبذلك امتنع الفاشيست عن احتقارنا كأسرى حرب، وذات يوم جمعونا وأوقفونا بصف واحد، ووقف أمامنا ضابط كبير برتبة جنرال – **oberleulnant** – وتكلم معنا بوساطة أحد المترجمين قائلاً: كل من خدم في الجيش أو عمل كسائق قبل الحرب عليه أن يتقدم خطوة إلى الأمام، وخرجنا من الصف حوالي سبعة كنا قد عملنا سائقين من قبل، وأعطونا بعض

ثياب الأفرولات القديمة، ثم ساقونا تحت حراسة شديدة إلى بوتسدام، ولما وصلنا هناك افترقنا، وكلفت أن أعمل في تود -**todt** - وكان هذا الاسم الذي أطلقه الألمان على مشروع شق الطرقات وإقامة الخطوط الدفاعية، وكلفت هناك بقيادة سيارة رائد مهندس من طراز ((أوبيل أدميرال))، كان هذا الخنزير الفاشي قصير القامة مربوعاً، وله كرش كبيرة لا تتناسب مع حجمه، وله أرداف كبيرة كأرداف الغانيات، وله ثلاثة ذقون: ذقنه العادية وكيسان من الدهون مثل الذقون يتدليان فوق قبة قميصه، وفي عنقه من الخلف ثلاث ثنيات مترهلة من اللحم، إنه بلا شك يحمل فوق رجليه ما لا يقل عن مئة كيلوغرام من الشحوم، وكنت تراه يمشي وهو يزفر كأنه آلة بخارية، وعندما يجلس لتناول الطعام، فيا للعجب إذ كان يمضغ طوال النهار الطعام في فمه، وبين الفينة والأخرى يرشف جرعة من قارورة فيها شراب ((البراندي)) ، وكان من وقت لآخر يناولني بعض الطعام، وكان لا يتوانى في بعض الأحيان من الوقوف في الطريق ليتناول بعض النقانق والجبن، كما يتناول بعض الشراب أيضاً، وعندما يكون مزاجه رائقاً كان يقذف لي بقطعة مما يأكل، وكأنني كلب، فلم يكن يناولني إياها بيده أبداً، لأنه كان يعتبرني دون مستواه، ولكن الحق يقال بأن الحياة هنا لا تقارن بالحياة التي كنا نعيشها في المعسكر، ورويداً رويداً أخذت أشعر بأنني إنسان كما أن وزني بدأ يزداد أيضاً.

قضيت أسبوعين وأنا أقود السيارة بالرائد ما بين بوتسدام وبرلين ذهاباً وإياباً، ثم تم إرسالنا إلى الخط الأمامي للجبهة كي نشيد تحصينات دفاعية ضد قواتنا، وعندئذ نسيت طعم النوم طوال الليل، وكنت أفكر بطريقة الهرب إلى الجانب الآخر من الجبهة لأكون بين قواتنا في بلادي.

ولما قدنا العربة إلى مدينة بولوتسك عند بزوغ الفجر سمعت ولأول مرة منذ سنتين صوت قصف مدفعيتنا، ولا يمكن أن تتصور كيف أخذ قلبي بالخفقان طرباً لهذا الصوت الذي لم يخفق بمثله من قبل حتى ولا لإيرينا محبوبتي في بداية علاقتنا.

كان القتال مستمراً شرق مدينة بولوتسك، وعلى بعد حوالي ثمانية عشر كيلو متراً، كان الألمان في المدينة متألمين جداً محطمي الأعصاب إلى أبعد مدى، ولكن صاحبي العجوز ذا البطن الكبير بدأ يشرب أكثر فأكثر، وكان يجعلني أتجول أثناء النهار في السيارة من مكان لآخر، ويعطي التعليمات في كيفية بناء الاستحكامات وتقويتها، ولكن أثناء الليل يجلس وحيداً ويسرف في الشراب مما جعل جسمه ينتفخ وظهرت أورام كبيرة تحت عينيه.

قلت لنفسي: حسناً لقد أتت الفرصة المناسبة فلا يجب أن أدعها تفلت من يدي، ولا يوجد داع للانتظار، ولن أهرب بمفردي، بل قررت أن آخذ معي هذا العجوز ذا البطن الكبيرة، فلا بد أن يكون له نفع هناك، وعثرت بين الخرائب على

قطعة من الحديد لففتها بخرقة من القماش، وبهذه الطريقة إن هويت بها عليه فلن تسيل دماؤه، كما وجدت شريطاً من أسلاك الهواتف في الطريق، وبذا يكون قد صار عندي كل ما أحتاجه لتنفيذ خطتي، فخبأت كل هذه الأشياء تحت مقعد السيارة الأمامي، وذات مساء وقبل يومين من مغادرتي الألمان مودعاً كنت عائداً من محطة البنزين، وشاهدت ألمانياً برتبة -**unter** - يترنح من كثرة الشراب مخموراً لأقصى حالات السكر، وكان يحاول أن يستند على الجدار، فجذبته وقدته إلى مبنى متهدم، ونزعت عنه ثيابه العسكرية، كما نزعت قبعته عن رأسه، وخبأت كل ذلك تحت المقعد، وبذلك صرت على أهبة الاستعداد.

وأمرني الرائد صباح يوم / 29 / حزيران بأن أمضي به من المدينة إلى نواحي تروز فيزا، فقد كان قد كلف بالإشراف على بعض أعمال الدفاع التي كانت تقام هناك، وسرت به في السيارة، وكان الرائد يجلس في المقعد الخلفي، وهو يغفو مطمئناً، أما أنا فقد كنت أجلس في المقعد الأمامي وراء عجلة القيادة، وقلبي يحاول أن يخرج من فمي، فأسرعت في القيادة، وعندما صرنا خارج المدينة هدأت من سرعة السيارة، ثم توقفت، وفتحت الباب وخرجت، وألقيت نظرة على ما حولي، فلم يكن هناك سوى شاحنتين من عربات اللوري قادمتين باتجاهنا من بعيد وببطء، ففتحت باب السيارة بالكامل وأخرجت قطعة الحديد، وكان العجوز ذو البطن الكبيرة مستلقياً على المقعد يشخر

مستغرقاً في نومه، وكأن زوجته تستلقي إلى جانبه، فضربته على صدغه الأيسر، وتدلى رأسه على صدره، وهويت عليه بضربة أخرى لأكون مطمئناً بأنه لن يأتي بحركة بعدها، لأنني لم أكن أريد أن أقتله بل كنت أريد أن آخذه معي إلى هناك حياً، فقد يكون باستطاعته أن يقدم لرجالنا كثيراً من الأشياء التي تهمهم، ثم استللت مسدسه من قرابه ووضعته في جيبي، وعملت ركيزة بقطعة الحديد في المقعد السفلي من الخلف، ثم لففت سلك التلفون حول عنقه، وربطته بقطعة الحديد لكي لا يسقط إلى جانبه أثناء قيادتي السيارة بسرعة، وارتديت الثياب العسكرية الألمانية، ووضعت القبعة على رأسي، وانطلقت بالسيارة في خط مستقيم إلى المكان الذي تهتز فيه الأرض، إلى حيث يدور القتال الشديد، وانطلقت أشق طريقي عبر خط الجبهة الألمانية بين ساترين عاليين، وسرعان ما برزت مجموعة من جنود المدفعية من أحد الخنادق، فهدأت من سرعة السيارة عمداً كي يشاهدوا أن معي ضابطاً كبيراً برتبة رائد، وعندما بدؤوا يصرخون ويلوحون لي بأيديهم محذرين من الاستمرار منطلقاً في ذلك الطريق، تظاهرت بأنني لا أفهم ماذا يقولون، ثم اندفعت بسرعة ثمانين كيلو متراً في الساعة تقريباً قبل أن يلاحظوا ماذا يحدث، فأخذوا يطلقون عليَّ النار، ولكنني كنت قد وصلت إلى الأرض

الفاصلة بين خطي الجبهتين، وأخذت أقفز كالأرنب يميناً ويساراً حول الحفر التي أحدثتها القنابل.

كان الجنود الألمان يطلقون عليَّ النار من الخلف، وكذلك بدأ رجالنا يمطرونني بوابل نيرانهم من الأمام، فاخترقت أربع رصاصات واجهة السيارة، كما أصيب الراديتير، ورأيت ليس بعيداً عني غابة صغيرة تشرف على بحيرة، كما رأيت مجموعة من شبابنا يركضون نحو السيارة، فتابعت بها متجهاً إلى داخل الغابة، وبعدئذ فتحت الباب وخرجت منها، ثم ركعت على الأرض وقبلتها، وتنفست الصعداء، وكان أول من وصل إليَّ شاب يلبس قميصاً عسكرياً من الكاكي وعلى كتفيه شرائط ملونة، ولم أشاهده سابقاً، وقف أمامي وهو مقطب الجبين وقال: أيها الشيطان الألماني أضعت طريقك أليس كذلك؟!. فخلعت البذلة الألمانية عني، وألقيت بالقبعة على الأرض عند قدميَّ، وقلت له: أيها الشاب اللطيف، يا ولدي كيف أكون ألمانياً وأنا ولدت ونشأت في فرونيز، إنني أسير حرب، ونظر إلى داخل السيارة ليعرف ما معي بداخلها، فأخبرته أنني استطعت الهروب من الألمان ، ومعي صيد ثمين، إنه الرائد المهندس الذي اختاروني للعمل معه، فقال: فك الرباط عن هذا الخنزير السمين، وخذ تذكرته ومفكرته، وامض به إلى قائدك، ثم أخرجت المسدس من جيبي وناولته إياه، ورحت أنتقل من يد شخص إلى يد

شخص آخر حتى المساء، وعند المساء كان عليَّ أن أقدم نفسي إلى الكولونيل القائد العام للفرقة، وقبل أن يحين موعد المقابلة أخذت حمَّاماً جيداً، ثم قدموا لي الطعام، وكانوا يسألونني شتى أنواع الأسئلة، ومنحوني بذلة جديدة لبستها وذهبت إلى خندق الكولونيل نظيف الروح والجسد، وفي شكل وهندام لا بأس به، فنهض الكولونيل من مقعد طاولة مكتبه، وتقدم نحوي ثم ضمني بين ذراعيه وقبلني على مرأى جميع الضباط المتواجدين معه، ثم قال: شكراً لك أيها الجندي الوفي العظيم على هذه الهدية التي قدمت بها إلينا.

إن الرائد الذي جئت به إلينا والمفكرة التي كانت بحوزته قدما لنا معلومات أكثر مما لو أسرنا عشرين ألمانيا من خطوط الجبهة، ولذا سأعطي أمراً كي يمنحوك وساماً، وكان لكلماته وللمودة التي شملني بها تأثير قوي عليَّ، فقد هزتني من أعمق الأعماق، حتى أنني لم أكن أستطع أن أوقف شفتيَّ من الارتعاش، ولكن كل ما استطعت أن أقوله: يا رفيقي الكولونيل، كل ما أطلبه أن تسمحوا لي بالالتحاق بإحدى وحدات المشاة، فضحك الكولونيل، وربت على كتفي، وهو يقول: أي نوع من المقاتلين تظن نفسك ستكون، وأنت لا تقوى على الوقوف على رجليك إلا بشق النفس؟!. سأرسل بك إلى المشفى في الحال، وهنالك يعالجونك، ويقدمون لك الغذاء المناسب، ثم أرسلك إلى منزلك إجازة لمدة شهر، وعندما تعود إلينا سوف نفكر في أي

مكان يمكن أن نلحقك به، وعندئذ سلمت على الكولونيل وجميع الضباط الموجودين معه يداً بيد، وودعوني بحرارة جعلتني أخرج ، ورأسي مرفوع يتأرجح من النشوة، فقد نسيت خلال العامين الماضيين اللذين قضيتهما في الأسر طعم المعاملة الإنسانية ومذاقها، وكما ترى يا رفيق فقد مر علي وقت طويل جداً حتى تخلصت من عادة إخفاء رأسي بين أكتافي كلما تحدثت إلى من هم أعلى مني من الرؤساء، وكنت قد اكتسبت هذه العادة خلال المدة التي قضيتها في المعسكرات الفاشية، إذ كنت أخشى أن أضرب إن رفعت رأسي، وحالما وصلت إلى المشفى كتبت رسالة إلى إيرينا أخبرتها فيها باختصار كل شيء جرى معي، وشرحت لها بالتفصيل الطريقة التي وقعت فيها بالأسر حتى وقت هروبي ومعي الرائد الألماني الذي أتيت به مع مفكرته هدية لرفاقي المقاتلين ضد الفاشية الألمانية، ومما قلته في رسالتي، ولا أعرف من أين أتاني هذا الغرور الصبياني: إنني لا أقدر أن أمنع نفسي من أن أخبرك أن الكولونيل بنفسه وعدني بأن يمنحني وساماً، وسام شرف عظيم.

وأمضيت أسبوعين في المشفى لا عمل لي فيهما سوى تناول الطعام والنوم، وكانوا يقدمون لي قليلاً من الطعام في كل وجبة، ولكنني كنت أتناول كثيراً من الوجبات، فقال لي الطبيب: لو قدمنا لك كل ما تريده من الطعام لذهبت إلى الآخرة، وبعد انقضاء أسبوعين لم أعد أستطع النظر إلى الطعام، كما أنه لم

يردني أي جواب على رسالتي من المنزل، ولا يخفى على أحد كيف بدأت الشكوك تساورني، ويغزو القلق تفكيري، وكما يقال ((بدأ يلعب الفأر بصدري)) فلم أعد أستطيع أن أفكر في تناول الطعام، وكذلك جفا النوم عينيَّ، وغدت جميع الأفكار الرديئة نزحف إلى رأسي.

وبعد مرور الأسبوع الثالث على رسالتي تلقيت رسالة من فرونيز لكنها ليست من إيرينا، بل أرسلها جار من جيراني، وإنني لا أحب لأي إنسان أن يتلقى مثل هذه الرسالة، فقد أخبرني فيها بأن الطائرات الألمانية قد ألقت قنابلها على مصنع الطائرات القريب من منزلي، وقد سقطت فوق منزلي قنبلة ثقيلة، وكانت بداخله في تلك اللحظة إيرينا وبناتي، وأخبرني أنهم لم يعثروا على أي أثر لهم، كما لم يبق للبيت وجود سوى حفرة عميقة في المكان الذي كان مشيداً عليه.

في البداية لم أستطع أن أنهي قراءة الرسالة، فقد غدا كل شيء مظلماً أمام عينيَّ، واعتصر الألم قلبي حتى غدا مثل كرة صغيرة مغلقة ظننت على إثرها بأنه لن ينفتح أبداً، فاستلقيت على سريري، وأخذت أستجمع بعض قوتي، وتابعت قراءة الرسالة، ومما كتبه جاري أيضاً أن ولدي أناتولي كان في المدينة وقتذاك، ولكنه جاء إلى مكان المنزل مساء، وألقى نظرة على الحفرة التي خلفتها القنبلة،

ثم قفل راجعاً إلى المدينة في نفس الليلة، وكل ما قاله لجاري أنه سوف ينزل إلى المدينة، وأنه سيتطوع في الجبهة مع المقاتلين.

وعندما خف ضغط أعصابي، وهدأ قلبي قليلاً، وسمعت الدم يندفع في أذنيَّ عادت بي الذاكرة إلى اليوم الذي كانت به إيرينا تتشبث بي عندما افترقنا في المحطة، فلاشك أن قلب هذه المرأة كان يعرف طوال الوقت بأننا لن نرى بعضنا بعضاً مرة ثانية في هذا العالم، ورغم ذلك فقد دفعتها بعيداً عني.

لقد كان لي ذات يوم بيت وأسرة تقبع فيه، وقد استغرق تشييد هذا المنزل سنوات وسنوات، ولكنه تحطم كله بغمضة عين، وبقيت وحيداً ليس لي أحد، وفكرت في نفسي: لا بد أن تكون هذه الحياة المعقدة المتشابكة التي أحياها حلماً من الأحلام، وما يدعو إلى العجب أنني طول المدة التي قضيتها في الأسر، كنت كل ليلة أناجي إيرينا والأطفال، وكنت أحاول أن أدخل الفرح والسرور إلى نفوسهم حين أقول لهم: لا داعي للحزن، وسأعود إلى البيت يوماً ما ونجمع شملنا ثانية، وإنني سأتحمل شتى صنوف العذاب والمشقات لهذا اليوم الذي نلم فيه الشمل، وهكذا بقيتُ السنين الطوال أتحدث إلى الموتى.

وسكت الرجل الكبير لدقيقة واحدة ثم تابع كلامه بصوت مرتعش: دعنا ندخن سيجارة يا رفيق لأنني أكاد أختنق، وأشعلنا لفافتي التبغ من جديد بينما صدى أصوات طيور نقار الخشب التي تضرب الأشجار بمناقيرها يتردد في

الغابة التي غمرت أرضها المياه، والنسمات الدافئة لا تزال تهب وتحرك أوراق أشجار الحور الجافة، والغيوم ما تزال تسبح في القبة الزرقاء كأنها أشرعة بيضاء، وفي تلك اللحظات التي لفها الصمت الرهيب، رأيت جانباً آخر لهذا العالم الواسع الذي أخذت تتفتح فيه أزهار الربيع، وتبرهن فيه بشكل واضح انتصار الحياة.

ضقت بهذا الصمت المخيم فقلت: ماذا حدث بعد ذلك؟، ماذا حدث بعد ذلك؟، قالها على غير رغبة منه، فقد منحني الكولونيل إجازة لمدة شهر، وبعد أسبوع كنت في فورونيز، وذهبت سيراً على الأقدام إلى المكان الذي كنت أعيش فيه مع أسرتي ذات يوم، فوجدت حفرة كبيرة مملوءة بالمياه الآسنة، والأعشاب الحراجية تحف بها من كل جانب، والتي ترتفع بحيث تغطي الإنسان الواقف فيها إلى منتصفه، وسادت الوحشة والفراغ في كل مكان، ولفه الصمت كصمت القبور، وشعرت بالحزن، فوقفت هناك مستسلماً تمزقني الأحزان، ولم أستطع أن أبقى هناك أكثر من ساعة واحدة وقفلت راجعاً في اليوم نفسه، ومن ثم التحقت بالفرقة.

وبعد انقضاء ثلاثة أشهر لمعت في سماء حياتي ومضة من الفرح كشعاع من الشمس استطاع أن يخترق حجب الغيوم الكثيفة، حين عرفت أخبار ولدي أناتولي، فقد أرسل لي رسالة من جبهة أخرى بعد أن حصل على عنواني من ذلك

الجار الذي كان صلة الوصل بيننا، وأخبرني في رسالته أنه دخل إحدى كليات المدفعية، وكان لديه موهبة كبيرة في الرياضيات، مما أتاح له أن يكون متفوقاً في هذه الكلية، وبعد عام من الدراسة تخرج بامتياز، ثم ذهب إلى جبهة القتال، وقد أصبح برتبة قائد صف، وأصبح قائد بطارية من الفدائيين كما أنه منح ستة أوسمة وميداليات، وباختصار لقد تفوق على والده كثيراً، كما أنني شعرت حقيقة بالفخر والاعتزاز به، قل ما يحلو لك، فإن ولدي أصبح ذا مكانة كبيرة في الجيش، وقائد بطارية مؤلفة من خمسة وأربعين عنصراً، وهذا ليس بالأمر السهل، كذلك ليكن بعلمك أنه نال أوسمة وميداليات، وكلها تثبت أنه تفوق على أبيه، بينما كان هم أبيه ليس أكثر من نقل القنابل وغيرها من المواد في سيارة من طراز ستد بيكر، فقد ذهب زماني، لقد ذهب زمان أبيه أما هو فالمستقبل أمامه، وفيه كل شيء.

وفي الليل كانت تتوارد علي أحلام الرجال المسنين، فكنت أفكر أني حين تضع الحرب أوزارها كيف سأزوج ابني، وأعيش معهم في البيت، وكيف سأعود لأمارس أعمال النجارة، كما أنني سأعتني بالأطفال، وسأمارس كل ما يتوجب على الرجل المسن ممارسته والقيام به، ولكن كل ذلك تبخر أيضاً، وأمسى وهماً وسراباً.

وفي الشتاء كانت قواتنا تتقدم بلا توقف، ولم يعد لدينا الوقت الكافي لنكتب إلى بعضنا كي نتواصل بالرسائل، ولكن عندما أوشكت الحرب على النهاية، وفي الوقت الذي اقتربنا فيه من برلين، وذات صباح أرسلت رسالة إلى أناتولي، فتلقيت الرد عليها في اليوم التالي، وكنا نزحف باتجاه العاصمة برلين من اتجاهين مختلفين، وذلك يعني أننا أصبحنا قريبين من بعضنا، وكلي شوق لهذه اللحظة التي ألاقيه بها، واقتربت اللحظة أجل، اقتربت ولكن في اليوم التاسع من أيار في صبيحة يوم تحقيق النصر أصيب ولدي أناتولي برصاصة قناص ألماني فقتل، وقد استدعيت بعد الظهر كي أقابل أحد قادة السرية، فرأيته يجلس مع ضابط غريب من ضباط المدفعية، وعندما دخلت إلى الغرفة نهض القائد واقفاً، وكأنه يستقبل رئيساً من رؤسائه وقال: لقد أتى لمقابلتك يا سوكولوف، ثم استدار واتجه نحو النافذة، وعندما رأيت هذا سرى في أعماق جسمي شيء غريب، وكأنني أصبت بمس كهربائي، وعرفت عندها بقدوم المصائب، فأقبل المقدم باتجاهي وقال: اصبر وتحمل يا والدي فالكابتن سوكولوف قد أصيب اليوم وقتل في بطاريته، تعال معي، وهنا ترنحت لكنني لم أفقد توازني، وحتى الآن أرى ما يحدث كالحلم، وتلك الساعة التي ذهبت فيها مع ذلك المقدم في تلك العربة الكبيرة بين الشوارع المغطاة بالحصى والحجارة المكسرة، كلها كانت كالحلم، وأذكر بشكل ضبابي هؤلاء الجنود، وهم مصطفون على شكل نسق،

ومنظر التابوت المغطى بالمخمل الأحمر، أما ولدي أناتولي فإني أراه بكل وضوح كما أراك الآن يارفيقي، وصعدت إلى جانب التابوت، وكان ولدي أناتولي هو الذي يرقد فيه، ولكنه ليس ولدي الذي أعرفه، فقد كان ولدي غلاماً صغيراً لا تفارقه الابتسامة، وكتفاه لم يكونا عريضين بل نحيلين، وكانت له تفاحة آدم صغيرة تظهر كنتوء من عنقه النحيل، أما ولدي هذا الراقد في التابوت فهو شاب عريض الكتفين مكتمل النمو، وقوي البنية، وذو طلعة بهية، وكانت عيناه نصف مغمضتين، وكأنه ينظر من خلالهما إلى شيء من الماضي البعيد، ولكن زوايا شفتيه هي الوحيدة التي بقيت محتفظة بشيء من ابتسامته التي كنت أعرفها ذات يوم، وهنا قبلته ثم انتحيت جانباً، وألقى المقدم كلمة، أما أصدقاء ابني أناتولي فكانوا يمسحون دموعهم، وأنا جافاني البكاء، فقد تكون الدموع قد جفت من مآقيَّ، وهذا ما جعلني أشعر بالألم حتى الآن، ودفنت أملي الأخير ومصدر هنائي في تلك الأرض الألمانية الغريبة، وأطلق أصدقاؤه النار مودعين قائدهم في رحلته النهائية الطويلة، وأحسست بأن شيئاً قد تحطم في داخلي، ولما رجعت إلى وحدتي كنت رجلاً آخر مختلفاً تماماً.

وبعدئذ سرعان ما أعلن تسريحي، ولكن أين علي أن أذهب، أأذهب إلى فورنيز؟!، ما هو الذي بقي لي هناك حتى أذهب من أجله؟!، وسرعان ما تذكرت صديقاً قديماً كان قد سرح من الجيش في فصل الشتاء بسبب إصابته

التي سببت له عجزاً، وكان يعيش في أوريوبنسك، وقد سبق أن طلب مني ذات يوم أن أذهب إليه لأعيش معه، ففعلت هذا الآن.

إن صديقي وزوجته لم يرزقا أطفالاً، وكان منزلهما الذي يملكانه صغيراً، ويقع في طرف المدينة، وكان يعيش من معاش العجز الذي يحصل عليه، فقد كان يعمل سائق سيارة في كراج شاحنات اللوري، وبدوري حصلت أنا أيضاً على عمل هناك، وأقمت مع صديقي، حيث أعطوني منزلاً أقيم فيه، وكنا نحمل بشاحناتنا شتى الأحمال ونسوقها إلى الضواحي، ولكننا في فصل الخريف كنا نتحول إلى نقل الحبوب، وفي ذلك الوقت تعرفت على ولدي الجديد الذي كان يلعب في الرمال هناك.

أول شيء يقوم به السائق منا نحن السائقين بعد عودته من رحلة طويلة هو أن يذهب إلى أحد المقاهي ليتناول بعض الطعام، وطبعاً ليشرب كأساً من الفودكا حتى يتخلص بها من بعض أتعابه. إنها لعادة سيئة ولكني كنت مولعاً بها في ذلك الوقت، ولا أخفي عليك أنني ذات يوم رأيت هذا الغلام بجانب المقهى، كما أنني رأيته مرة أخرى في اليوم التالي، وكان رث الثياب مما يدعو إلى الشفقة، وكان وجهه حتى شعر رأسه مغطى بالتراب المختلط بسائل البطيخ الأحمر، وكان مظهره كله قذراً، لكنه يملك عينين صافيتين يتلألأن كنجمتين في ليلة انقشع عنها الغيم بعد سقوط المطر، وتعلق قلبي بهذا الولد وصرت مغرما به،

حتى أنني صرت أنتقده، وقد يبدو هذا مثيراً للسخرية، فقد كنت أحاول أن أنهي رحلتي بأقصى سرعة لكي أعود إلى المقهى وأراه هناك، لأنه كان يعيش على الطعام الذي يقدمه له بعض الناس، وفي اليوم الرابع عدت بشاحنتي اللوري من مزرعة الدولة وهي محملة بالحبوب، واتجهت مباشرة إلى المقهى، وأوقفت شاحنتي أمامه، وكان زميلي الصغير يجلس على درج الباب الخارجي ويضرب رجليه في الأرض، وكان منظره يوحي بأنه على درجة عالية من الجوع، فأخرجت رأسي من نافذة الشاحنة وصحت به: فانيا.. هيا تعال، اصعد إلى الشاحنة فسوف آخذك مشواراً إلى الرافعة ثم نعود ونتناول طعام العشاء، فنهض بعد سماع صوتي ثم قفز إلى الشاحنة، ورفع رأسه إلى النافذة وقال: كيف عرفت أن اسمي فانيا، قالها بكل هدوء، ثم فتح عينيه الجميلتين على اتساعهما منتظراً جوابي، فقلت له: إنني واحد من هؤلاء الشباب الذين يعرفون كل شيء، ثم التفت حول الشاحنة وأتى إلى الجانب الأيمن من السيارة، ففتحت الباب وجعلته يجلس بجانبي، ثم غادرنا المكان، لقد كان زميلاً رائعاً يفيض بالحيوية، ثم صمت فجأة، وأخذ ينظر إلي من تحت أهدابه الطويلة بين الفينة والأخرى، وأخذ يتنهد، فبالرغم من صغر سنه فقد تعلم كيف يتنهد، وكأنما التنهد خلق فقط لأمثاله، وسألته: فانيا أين أبوك؟، فأجابني: قتل في الجبهة.

- وأمك؟.

- قتلت أيضاً بقنبلة عندما كنا بالقطار.
- من أين كنتما قادمين بالقطار؟.
- لا أعرف، لا أتذكر.
- أليس لك عائلة على الإطلاق؟.
- كلا ليس لي من أحد.
- وأين تنام أثناء الليل؟.
- في أي مكان أجده.

وشعرت بالدموع الحارة تحرق ما بأعماقي، ولكنني تماسكت وقلت في نفسي: لماذا نتألم وحيدين مفترقين على هذا الشكل؟، لماذا لا أتخذه ابناً لي، ولما بدر مني هذا الرأي واستقر تفكيري عليه شعرت بالراحة تتسلل إلى رأسي، وبالسعادة تملأ نفسي، ثم ملت باتجاهه وسألته بكل هدوء:

- فانيا هل تعرف من أكون أنا؟.
- وتنهد تنهيدة عميقة وقال:
- من؟.، وبقي على نفس الهدوء.
- أنا أبوك.

أيها الإله الحي، أتعرف ماذا حدث عند ذلك؟، لقد ألقى ذراعيه حول عنقي، وأخذ يقبل وجنتي وشفتي وجبيني، وأخذ يزقزق كطائر صغير طارت إليه أمه

وحطت بقربه في عشه ، ثم قال: أبي عزيزي أنا أعرف هذا، أعرف بأنك سوف تجدني، مهما حدث وجرى، فقد انتظرتك طويلاً حتى تجدني، والتصق بي وهو يضغط جسمه بجسمي، ويرتجف كورقة غصن شجرة في مهب الريح، فاغرورقت عيناي بالدموع، وأخذ جسمي يرتجف أيضاً، ويداي ترتعشان، ولم أكن أعرف حتى الآن كيف استطعت في ذلك الوقت أن أتمسك بعجلة القيادة بين يدي دون أن أنحرف وأسقط في أي خندق، فأطفأت محرك الشاحنة وتوقفت، فقد كنت خائفاًأن أستمر وعينايَ مغرورقتان بالدموع، كنت خائفاًأن أصدم أحداً ما، وبقينا واقفين هناك ما يقارب خمس دقائق، وكان ولدي الصغير متشبثاًبي بكل ما أوتي من قوة، ولم يتفوه بأي حرف بل كان جسمه يرتعش، فأحطته بذراعي اليمنى، وضممته إلي برفق، وأدرت الشاحنة بيدي اليسرى، وقفلت راجعاً إلى البيت الذي أسكن فيه، ولم أستطع أن أذهب إلى الرافعة، ركنت الشاحنة أمام باب البيت، وحملت ولدي الجديد إلى داخل المنزل، وكان يلف ذراعيه الصغيرتين حول عنقي ، وهو متعلق متشبث بي، وكان يضغط بخده على ذقني غير المحلوقة، ويلتصق بي بقوة، وعلى هذه الشاكلة حملته إلى الداخل، وكان صديقي وزوجته كلاهما في البيت، فدخلت وغمزت بعيني لهما وأنا أقول بكل جرأة وسرور بهما: لقد عثرت على ولدي فانيا أخيراً، وها قد التقينا، ولأن صديقي وزوجته من الناس الطيبين الذين لم يرزقا

أولاداً بالرغم من رغبتهما في أن يكون لهما ولد واحد في هذا الحياة، لذا أدركا ما كنت أبغيه في الحال، فأظهرا الاهتمام به، ولكن الصبي بقي متعلقاً بي، ولا يريدني أن أنزله من حضني، ولكنني استطعت أن أقنعه بطريقة أو بأخرى فنزل، وغسلت له وجهه و يديه بالماء والصابون، وأجلسته على المائدة، وقدمت له زوجة صديقي طبقاً من الطعام، ولما رأته يلتهم الطعام التهاماً انفجرت بالبكاء، ووقفت بجانب الموقد، وقد غطت عينيها بمئزرها، وحين رآها على هذه الحالة اقترب منها، وجذب طرف فستانها وهو يقول: لماذا تبكين أيتها الخالة؟، لقد عثر علي والدي قرب المقهى، وهذا ما يبعث السرور، والأجدر بنا أن نكون كلنا سعداء، وها أنت تبكين، فانفجرت المرأة بالبكاء حتى بللت الدموع وجنتيها، وبعد العشاء أخذته إلى صالون الحلاقة، وقص له الحلاق شعره، وعند عودتنا إلى المنزل أدخلته الحمام، وقمت بتنظيفه بنفسي ثم لففته بشراشف نظيفة، فلف ذراعيه حولي وراح يستغرق في النوم بين ذراعيَّ، وحينئذ وضعته على السرير بكل رفق، ثم خرجت من المنزل، وقدت الشاحنة إلى الرافعة، وأفرغت الحبوب هناك، ومن ثم عدت إلى كراج الشاحنات، وبعدها ذهبت إلى أحد المحلات ، واشتريت له بنطالاً من الصوف، وقميصاً وحذاء وقبعة من القش، وكلها لم تكن على مقاسه، وليست من النوع الجيد، فلامتني زوجة صديقي على شراء البنطال قائلة: هل أنت أحمق إلى هذا الحد حتى تلبس

الصبي بنطالاً من الصوف في مثل هذا الحر؟!، ثم ما لبثت أن وضعت ماكينة الخياطة على الطاولة، وراحت تفتش في خزانة الملابس، ولم تمض ساعة واحدة حتى أعدت بنطالاً قطنياً وقميصاً أبيض اللون لصغيري فانيا، ثم أخذتهما معي إلى السرير ، وكانت المرة الأولى التي أنام فيها بسلام بعد ليال كثيرة من القلق، واستيقظت أربع مرات خلال الليل لأنظر إليه وأتفقده، وكان يلبد في طية ذراعي كالعصفور تحت جانح أمه، وكانت أنفاسه تتردد بكل هدوء، ولكنني لم أجد الكلمات المناسبة التي أعبر فيها عن مدى شعوري بالسعادة التي كنت أحس فيها، وكنت أحاول ألا أتحرك حتى لا أقلقه، فأنهض بكل هدوء وأشعل عود ثقاب ثم أقف هناك وأتأمله بصمت وسكون.

وكنت قبيل بزوغ الفجر أستيقظ أحياناً حين ينتابني شعور بالاختناق، ثم لا ألبث أن أعرف بأن ابني خرج من غطائه، واستلقى على صدري مباشرة، واضعاً قدميه الصغيرتين فوق حلقي، والحق أن هذا لمتعب جداً لمن ينام معه، ولكني اعتدت على هذا القلق وأصبح مألوفاً لديَّ، لأنني كنت أفتقده إن لم ينم بجواري، فقد اعتدت أن أراقبه في الليل وهو يغط بنوم عميق، وأتنشق عبير شعره المجعد، فيزول الألم من قلبي، وأشعر بالراحة تسري في أوصالي، وفي هذا القلب الذي أحالته المصائب إلى قطعة من صخور أو حجارة.

كان يصاحبني في البداية برحلاتي في الشاحنة، ثم لاحظت أن ذلك لا يمكن استمراره، وأنه غير مجد، لأنه ليست هناك مشكلة إذا كان الأمر يتعلق بي، فأنا بالنسبة لي كسرة خبز وبصلة وقليل من الملح تكفي الجندي السابق طوال النهار، ولكن الأمر يتعلق بالصغير، فقد أصبح الأمر مختلفاً لأن الصغير يحتاج إلى من يقدم له كوباً من الحليب، وأحياناً بيضة مسلوقة، وهو لا يستطيع أن يستغني عن مشروب ساخن إن لم يقدم له، وإن طبيعة عملي تمنعني من أن أقدم له كل ما يحتاجه، وكيف لي أن أوفق بين العمل وبين تقديم الرعاية للصغير، وهكذا استجمعت شجاعتي وتركته في رعاية زوجة صديقي، وكان في البداية لا يكف عن البكاء طوال النهار، وعند المساء كان يركض إلى قرب الرافعة ليقابلني، وكان في بعض الأحيان يبقى منتظراً إلى ساعة متأخرة في الليل حتى يستقبلني، وكنت أعاني صعوبة كبيرة معه في بداية الأمر، وحدث أنه بعد يوم مرهق في العمل ذهبت إلى النوم معه، وكان الضوء مازال موجوداً، وكان من عادته أن يزقزق دائماً كالعصفور، ولكنه في تلك الليلة بقي ساكناً طوال الوقت، فسألته قائلاً: بأي شيء تفكر يا ولدي؟، فنظر إلى السقف وسألني: ماذا فعلت بمعطفك الجلدي يا والدي؟، فقلت له: لم يكن عندي أي معطف جلدي في حياتي، وأردت أن أحول موضوع الحديث فقلت له:

- تركته في فرونيز.

- ولماذا بقيت كل هذه المدة الطويلة تبحث عني؟.

- بحثت عنك يا ولدي في ألمانيا، وفي بولندا، وفي كل روسيا البيضاء، ولكني وجدتك أخيراً بأنك في أوريو بنسك.

- وهل أوريوبنسك أقرب من ألمانيا؟، وهل المسافة بين بولندا وبيتنا طويلة جداً؟، وهكذا بقينا

بهذا الحديث حتى أثقل النعاس أعيننا واستسلمنا للنوم.

هل تظن أنه ليس من سبب لسؤاله عن المعطف الجلدي يا رفيقي، فلا بد من أن يكون هناك سبب لمثل هذا السؤال، ولابد أن والده الحقيقي كان يرتدي معطفاً كهذا في يوم من الأيام، وفجأة برزت ذكراه في خاطره، وذاكرة الطفل كما تعلم مثل برق الصيف، إنها تلمع وتضيء الأشياء ثم تنطفئ، وعلى هذا المنوال تعمل ذاكرته من وقت لآخر.

كان بإمكاننا أن نستمر بالعيش سنة أخرى في أوريوبنسك، ولكن في شهر تشرين الأول وقع معي حادث حين كنت أقود الشاحنة في طريق موحل عبر إحدى القرى، فانزلقت الشاحنة، وصدمت بقرة كانت بالمصادفة في الطريق، وكما تعلم لقد تجمعت النسوة وأثرن ضجة كبيرة، وتجمهر الناس حول الشاحنة، وخلال لحظات كان مفتش المرور متواجداً بمكان الحادث، وطلبت منه أن يتهاون في الأمر، ولكنه أصر على أن يسحب شهادة القيادة، ثم نهضت

البقرة، وشرعت ذيلها في الهواء، وأخذت تركض مسرعة في الطريق، لكنني فقدت شهادة القيادة، وأمضيت مدة الشتاء أعمل بالنجارة، ثم اتصلت بصديق من أصدقاء الجيش القدامى، وهو يعمل سائقاً في منطقتنا، فدعاني أن أذهب لأمكث معه، وقال لي: إنك تستطيع أن تعمل في النجارة لمدة سنة، وبعدها يكون بإمكانك أن تحصل على شهادة قيادة جديدة من منطقتنا، وها نحن الآن أنا وولدي في طريقنا إليه سيراً على الأقدام إلى بلدة كاشاري، فأنا وإن لم يقع لي الحادث كنت سوف أغادر أوريوبنسك في يوم ما لأن ما يعتمل في داخلي من أحزان يجعلني لا أرغب بأن أقيم في أي مكان مدة طويلة من الوقت، وعندما يكبر فانيا ويتأهل لدخول المدرسة، فعند ذلك يكون لزاماً عليَّ أن أرضخ وأستقر، أما الآن فإننا نتجول في الأراضي الروسية معاً، وسيراً على الأقدام.

- أليس هذا متعباً ألا يتعب الصغير من السير؟،

- إنه لا يمشي كثيراً على رجليه لأنه معظم الوقت يبقى راكباً عليَّ، حيث أرفعه على كتفي وأحمله، أما إذا أراد أن يمدد ساقيه فينزل عن كتفي إلى الأرض، ويركض على جانبي الطريق، ويقفز هنا وهناك، وكأنه جدي ماعز صغير.

كل هذا لا يهم يا رفيق فباستطاعتنا أن نبقى على هذا المنوال طوال الوقت، ولكنني أشعر دائماً بأن في قلبي شيئاً ليس في مكانه الصحيح، شيئاً قد تحطم في مكان ما منه، ويحتاج إلى تغيير بسطون محركه، فكثيراً ما كنت أشعر بوخز فيه،

وهذا ما يخيفني، وأشد ما كنت أخشاه هو أن أموت وأنا نائم ذات ليلة، فيصاب ولدي الصغير بالفزع والهلع، وليس هذا هو الشيء الوحيد الذي يؤرقني بل إنني في كل ليلة تقريباً أرى في أحلامي بعض أعزائي الغوالي الذين فقدتهم، وكثيراً ما كنت أرى نفسي واقفاً وراء أسلاك شائكة، وهم أحرار طلقاء على الجانب الآخر، وكنت أرى إيرينا والأولاد وأتحدث معهم عن كل شيء، ولكنني ما إن أحاول أن أسحب الأسلاك لأفتحها أمامي عيني بشكل أوسع حتى يتواروا ويذوبوا ويتلاشوا، وكذلك يوجد شيء آخر مثير للدهشة والعجب ألا وهو ما يحدث معي في النهار، فقد كنت أمسك نفسي دائماً دون أن تصدر مني آهة أو زفرة حتى ولا أنة من الأنين علماً بأنني في بعض الأوقات كنت أستيقظ ليلاً فأجد وسادتي مبللة كلياً بالدموع.

وجاء من صوب النهر صوت صديقي مع صوت تخبط المجاديف بالماء، صديقي هذا الغريب الذي أصبح صديقاً حميماً لي، وقد مدَّ يده الكبيرة الصلبة كأنها كتلة من الخشب، وقال: وداعاً الآن يا رفيقي أتمنى لك حظاً سعيداً.

- مع السلامة، وبالتوفيق، أتمنى لك رحلة موفقة إلى كاشاري.
- شكراً لك، وهيا بنا يا ولدي دعنا نذهب إلى المركب، وركض الصبي إلى جانب والده، وأمسك بطرف جاكيته، وبدأ يمشي بخطوات صغيرة إلى جانب والده الذي يسير بخطوات واسعة.

حبتان من الرمل يتيمتان ألقى بهما إعصار الحرب إلى هذه النواحي الغريبة، ترى ماذا يخبئ لهما المستقبل، كل ما أتمناه بإيمان أن يبقى صامداً مع مرور الأيام هذا الروسي الذي لا تتحطم إرادته، وأن ينمو هذا الصغير، ويترعرع برعايته حتى يصير رجلاً يتحمل نوائب الدهر، ويتغلب على كل عقباته ومصاعبه حين يلبي واجب الوطن، ويستجيب إذا ما دعاه سريعاً .

وكم شعرت بالحزن وأنا أراهما يذهبان، ومع هذا فربما كان الفراق سيمر على ما يرام لولا ما قام به فانيا، إذ لم يكد يخطو بضع خطوات حتى أدار علي ساقيه الواهنتين، ولوَّح لي بيده الوردية الصغيرة، وعندئذ شعرت بأن مخلباً حاداً قد أنشب أظفاره فغرزت في قلبي، واستدرت بسرعة حتى أخفي وجهي، كلا إن هؤلاء الرجال الكهول الذين شاب شعرهم، وابيضَّ من سنوات الحرب الطويلة القاسية المريرة لا يبكون فقط أثناء نومهم، بل إنهم ينتحبون حتى في ساعات يقظتهم ويدمعون.

المهم في الحقيقة أنه على الإنسان أن يعرف كيف يداري دموعه، وأن يخفيها عن طفل لئلا يفجع قلبه، ولا يدعه يرى الدموع المحرقة، وهي تسيل من عينيه رغماً عن إرادته فتحرق وجنتيه. هذا هو المهم في الحقيقة يا رفيقي، هذا هو المهم في الحقيقة.

ترجمة: محفوظ جروج

2017 / 6 / 14